بسم الله الرحمن ارحيم

مسألة النظام والثورة

الجمهورية الإسلامية في إيران:

تجربة ضخمة أخرى على الخط رسالات السماء..

وتحقيق لأمل الأجيال المسلمة المتطلعة إلى إقامة «المجتمع الإسلامي»..

وتجسيد لانتصار قوى الحق على قوى الباطل.

ولادة هذه الجمهورية:

تنبئ بغد تسقط فيه الأصنام والطواغيت.. وتبشر بإنجاز وعد الله باستخلاف المستضعفين في الأرض. وتأتي في وقت تكالبت قوى الشر على إزهاق أرواح البشرية وامتصاص دمائها وإبادة خيراتها.

هذه الولادة المباركة الكبرى تطرح على الساحة قضايا متعددة..

قضايا تتعلق بالأصالة وبالتطبيق بالتحديات.. وبالمستقبل. وسائل الأعلام العالمية والعربية تناولت دراسة هذه القضايا بشيء قليل من الوضوح وكثير من الخلط والخبط وسوء الفهم. وبقليل من الإنصاف وكثير من الدس والافتراء والتحامل.

من هنا ولدت فكرة إصدار هذه السلسة التي تتولى تقديم أحاديث ودراسات تتعلق بمعالجة قضايا الجمهورية الإسلامية على لسان رواد الفكر الإسلامي في إيران.

هذه الحلقة ترجمة لمقابلة تلفزيونية هامة أجريت مع الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري قبل إجراء الاستفتاء العام على «نظام الجمهورية الإسلامية» في إيران.

كان من المقرر أن تنظم هذه الحلقة وتبوب من قبل الأستاذ الشهيد قبل طبعها ونشرها.. ولكنه غادر ـ رضوان الله عليه ـ والمقابلة على ما يراها القارئ من عدم تبويب وتنظيم.

الأستاذ الشهيد تناول في هذه المقابلة مسائل على غاية من الأهمية تتعلق بالنظام الإسلامي وبطبيعة الثورة ومستقبلها. نأمل أن تكون فاتحة خير لما سنتقدمه للقارئ العربي ـ إن شاء الله ـ من مسائل تهمه بشأن الجمهورية الإسلامية في إيران.

والله الموفق.

«المعرب»

الجمهورية الإسلامية في إيران

*** فضيلة الأستاذ، نحن على أبواب إجراء استفتاء العام لتعيين النظام الحاكم في إيران، وخلال هذه الأيام، يطرح البعض ـ وخاصة المثقفين ـ أسئلة فكرية وأيديولوجية تتعلق بمسألة النظام..**

نغتنم فرصة لقائنا بكم في هذه الندوة التلفزيونية لنوجه إليكم أهم تلك الأسئلة:

أبدأ من مفهوم (الجمهورية الإسلامية)، وهو مفهوم يبدو غامضاً إلى حد كبير.. فالجمهورية تعني إعطاء الشعب حق الحاكمية.. بينما الصفة الإسلامية تقيد هذه الحاكمية وتحددها، ويبدوا أيضاً أن مفهوم الجمهورية الإسلامية يتعارض مع المفاهيم الديمقراطية ومفاهيم الجمهورية بمعناها المطلق العام، فهل لكم أن تعطونا صورة واضحة لنظام الجمهورية الإسلامية؟

ـ أعتقد أن مفهوم (الجمهورية الإسلامية) واضح لا يحتاج إلى كثير من الشرح والتفصيل.

فالمفهوم مركب من كلمتين: كلمة (جمهورية) وكلمة (إسلامية)..

كلمة الجمهورية: تعين شكل الحكومة المقترحة.

وكلمة إسلامية: تحدد محتوى هذه الحكومة.

تعلم أن النظم التي حكمت في العالم وتحكم الآن متنوعة منها النظام الفردي الوراثي، كنظام السلطنة والنظام الملكي.. ومنها النظام الارستقراطي كالنظم التي يحكم فيها الفلاسفة أو الحكماء أو المتخصصون أو الأشراف. ومنها حكومة المتنفذين وأصحاب رؤوس الأموال ودافعي الضرائب.. وغيرها من النظم والحكومات.

حكومة عامة الناس، واحدة أخرى من الحكومات المطروحة على ساحة أنظمة الحكم.. وهي تعني الحكومة التي يتمتع فيها جميع الناس بحق الانتخاب دون تمايز بينهم في الجنس أو اللون أو العقيدة، والشرط الوحيد في المنتخب هو البلوغ والنضوج العقلي لا غير..

إضافة إلى ذلك، الهيئة الحاكمة المنتخبة تحكم لفترة معينة، وللشعب حق إبقائها أو تغييرها بعد انقضاء تلك الفترة.. وهذا الشكل من أنظمة الحكم هو (الجمهوري)، وهو الشكل المقترح لنظام الحكم في إيران.

أما كلمة (إسلامية)، فتعني كما قلنا تحديد محتوى هذه الحكومة، ومحتوى هذا الشكل ـ أي أن المنتخب حينما يقول نعم للجمهورية الإسلامية، يقترح أن يكون نهج الحكومة على أصول وتعاليم إسلامية.

الإسلام ـ كما هو واضح ـ مدرسة فكرية وأيديولوجية وأطروحة لتنظيم الحياة البشرية بجميع أبعادها وشؤونها.

من هذا الفهم أن (الجمهورية الإسلامية) تقوم على أساس نظام يتمتع فيه أفراد الشعب بحق الانتخاب وبحق تغيير الهيئة الحاكمة، وهذا هو شكل النظام.. أما المحتوى فإسلامي.

والذين يجدون غموضاً وتناقضاً في كلمة (الجمهورية الإسلامية) قد اختلط عليهم الأمر، وخالوا أن ثمة تناقضاً بين حق السيادة وحق الالتزام بمدرسة فكرية عملية في الحياة. هؤلاء ظنوا أن الإنسان الملتزم بخط فكري معين والمناضل من أجل تطبيق مبادئ هذا الخط في الحياة الاجتماعية، ليس بحرّ ولا ديمقراطي. ومن خلال هذه المعادلة الوهمية الخاطئة يستنتجون أن الديمقراطية سيتهددها الخطر، إن أضحى النظام إسلامياً وأضحت الجماهير تؤمن بالمبادئ الإسلامية وتطالب بتطبيقها!.

مسألة الجمهورية الإسلامية ـ كما ذكرت ـ ترتبط بشكل النظام المؤطر بنوع من الديمقراطية، أي القائم ضمن إطار إعطاء الأفراد حق تقرير المصير، ومفهوم الجمهورية هذا لا يعفي الجماهير من التمسك بخط فكري معين والالتزام بمبادئ مدرسة معينة.

تُرى، هل تعني الديمقراطية أن يلتزم كل فرد بخط فكري خاص، أو أن يتخلى جميع الأفراد عن أي التزام بمدرسة فكرية؟!

ترى، هل الإيمان بمبادئ قائمة على أساس العلم والمنطق والفلسفة، والتسليم لهذه المبادئ، يعارض الديمقراطية؟!

الأكثرية الساحقة للشعب الإيراني تؤمن إيمانا راسخاً بمبادئ الإسلام، وليس في هذا الإيمان المطلق ذنب ولا عيب.

لكن العيب أن تسلب هذه الأكثرية الساحقة، ومن الأقلية غير المؤمنة، حق النقد والمناقشة والاعتراض.

وهل هذه الأقلية الضئيلة المعارضة تتمتع بالحد الكافي من الحرية؟ هذا ما نترك الجواب عليه لأولئك الذين يصرون على أن الديمقراطية ترادف عدم الالتزام بمدرسة فكرية!

*** ذكرت أن النظام الجمهوري يعني منح جميع الجماهير حق الحاكمية والسيادة. والسيادة الشعبية من معطيات الثورة الدستورية الإيرانية في مطلع هذا القرن، وطرح مسألة (الجمهورية الإسلامية) بدلاً من (الجمهورية) بشكل مطلق، يؤدي إلى حكومة طبقة الروحانيين (علماء الدين)، ألا تعتقد أن هذا يؤدي إلى سلب الجماهير حقها في الحكم والسيادة؟ إلاّ تعتقد أن السلطات الحاكمة تنطلق من الشعب، بدلاً من الخوض في بحوث غامضة ترتبط بالحكومة الإسلامية كمبحث ولاية الفقيه؟!**

ـ أفهم من سؤالك أنك تريد أن تقول: أن الشعب الإيراني في ثورته الدستورية, وقد نال حق سيادته الشعبية، أي حق انطلاق السلطات التقنينية والتنفيذية والقضائية من الشعب. وليس من المعقول أن تفوض الجماهير هذا الحق لشخص أو أشخاص محددين. كما تريد أن تقول أيضاً، إن مفهوم الجمهورية الإسلامية يعني حق الحاكمية الفقهية ـ أو استبداد الفقهاء كما يقول بعضهم ـ وهو مفهوم رجعي معارض لسيادة الشعب.

من أجل أن أجيب على ما تقول، لابد أن أذكر أن الشعب الإيراني نال في ثورته الدستورية حق سيادته، لكن هذا الشعب لم يكن يرى أي تعارض بين نيله هذا الحق، والتزامه بالإسلام فكراً وعقيدة وقانوناً ينظم جميع شؤون الحياة. ولهذا نص الدستور الإيراني، المدون عقب انتصار تلك الثورة، على ضرورة السير في إطار القوانين الإسلامية، وصرح بأن أي قانون يفقد اعتباره القانوني إذا كان معارضاً لقوانين الإسلام، كما نص الدستور الذي تمخضت عنه الثورة الدستورية الإيرانية على ضرورة وجود خمسة فقهاء في مجلس النواب للإشراف على القوانين, ولم يكن يخطر على بال رواد الثورة الدستورية أن التمسك بالإسلام والالتزام بالحدود والقوانين الإسلامية يعارض الروح الدستورية والروح الديمقراطية، كما أنهم لم يروا معارضة بين الإسلام وبين قدرة مجلس النواب على التقنين لأن القوانين كانت تُسن في إطار المبادئ الإسلامية.

المهم أن يكون الشعب هو المنفذ للقانون الذي آمن به وقَبِله سواء كان الشعب هو الذي سن القانون، أو أن يكون قد سنه صاحب مدرسة فكرية أو منظر قانوني، أو أن يكون القانون الذي آمنت به الجماهير قد تلقته عن طريق الوحي الإلهي.

يتضح من هذا أن الصفة الإسلامية للجمهورية لا تتعارض مع سيادة الشعب أو مع الديمقراطية بشكل عام، والمبادئ الديمقراطية لا تتطلب بالضرورة ابتعاد المجتمع عن كل خط فكري ملتزم.

إننا نرى الأحزاب تنتمي إلى أيديولوجيات معينة، ولا تعتبر هذا الانتماء معارضاً لمبادئ الديمقراطية، لكن المسألة حينما تطرح على الصعيد الإسلامي، يثير بعضهم شكوكاً وتساؤلات حول إمكان انسجام المفهوم الإسلامي مع المفهوم الجمهوري.

أعتقد أن هذه الشكوك والشبهات تطرح من لدن أفراد لا يزالون يؤمنون بديمقراطية القرن الثامن عشر التي تحدد حقوق الإنسان بإطار مسائل المعيشة والمأكل والمسكن والملبس وحرية انتخاب طريقة المعيشة المادية. هذه الديمقراطية التي تحذف من دائرة الحقوق الإنسانية مسائل الانتماء الفكري والالتزام المدرسي والتكامل الإنساني والتحرر من سلطة البيئة والغرائز...

أشرت في أسئلتك إلى سلب الجماهير حقها في الحاكمية والسيادة، وهنا لابد أن أشير إلى حقيقة واضحة كل الوضوح هي: أن الأكثرية الساحقة للشعب الإيراني حددت في شعاراتها ومطالبها نوع النظام الذي تريده. لم يتجه كفاح الشعب الإيراني ضد التسلط السياسي والاستعمار الاقتصادي فحسب، بل اتجه أيضاً إلى مقارعة الثقافات والايديولوجيات الغربية، إلى مقارعة التبعية للغرب تحت العناوين المغرية نظير الحرية والديمقراطية والاشتراكية والمدنية والتطور والتقدم وغيرها من العناوين الزائفة التي يلوح بها الاستعمار وعملاؤه في عالمنا.

إن الملايين من أبناء الشعب الإيراني حين طالبوا في مظاهراتهم الضخمة الصاخبة بإقامة الجمهورية الإسلامية، قد حددوا في الواقع الإطار الفكري لنظام الحكم الذي يريدونه.

الهوية الوطنية لأي شعب من الشعوب تتمثل في التراث الحضاري المتأصل في أعماق هذا الشعب.

وهذه الهوية الوطنية تتمثل لدى جماهير الشعب الإيراني بالإسلام.

الإيرانيون المنفصلون عن الإسلام، هم في الواقع منفصلون عن الروح الحضارية للشعب الإيراني، وعن إرادة هذا الشعب على الرغم من أنهم يعيشون في كنف هذه الأمة وتحت حمايتها.

لو كانت إرادة الشعب في إقامة الجمهورية الإسلامية، تتعارض مع السيادة الشعبية، لكانت الديمقراطية أمراً محالاً، إذ أن وجودها يستلزم عدمها.

لا أحد يريد فرض الطابع الإسلامي على النظام الجمهوري المقترح في إيران. فتلك إرادة الشعب نفسه. والثورة في إيران بدأت تتصاعد بسرعة فائقة منذ طرح شعار الجمهورية الإسلامية.

مفهوم الجمهورية الإسلامية ينطوي على نفي وإثبات. نفي لنظام حاكم يفرض سيطرته خمسة وعشرين قرناً، وإثبات محتوى إسلامي وتوحيدي للنظام المقترح.

طرحت في أسئلتك أيضاً، مسألة ولاية الفقيه، وهذه المسألة تتضح في ضوء ما ذكرناه.

ولاية الفقيه لا تعني أن يكون الفقيه على رأس الجهاز الحاكم، وأن يمارس الحكم بنفسه عمليا.

دور الفقيه في البلد الإسلامي ـ أي في البلد الذي آمن مواطنوه بالإسلام باعتباره مدرسة فكرية متكاملة ـ هو دور المنظر (ايديولوك)، لا دور الحاكم. وواجب المنظر أن يشرف على التنفيذ الصحيح للنظرية، أن يبدي رأيه في صلاحية الأفراد المنفذين للدستور، وفي صلاحية رئيس الجمهورية، وفي جميع الأعمال التي تتعلق بتطبيق النظرية الإسلامية.

لم يكن ثوار الحركة الدستورية وأنصارها في إيران تلك الأيام، ولا الشعب الثائر المسلم اليوم، يرون في الفقيه حاكماً ينبغي أن يتقلد زمام الأمور ويمارس الإدارة والحكم. بل كانوا يرون فيه الشخص الذي ينبغي أن يبدي وجهة نظره في صلاحية الحاكم المنفذ للقوانين الإسلامية، باعتبار أن المجتمع إسلامي، وأن المواطنين يرتبطون بالمدرسة الإسلامية.

من هنا جاء في الحكم الصادر من الإمام إلى رئيس وزراء الدولة المؤقتة: إنني أعين رئيس الحكومة، استناداً إلى الحق الشرعي (ولاية الفقيه)، واعتماداً على الثقة التي أولتني بها الأغلبية الساحقة للشعب الإيراني.

ولاية الفقيه ولاية أيديولوجية. والفقيه منتخب من قبل الجماهير، وهذا عين الديمقراطية.

لو كان الفقيه منصوب من قبل فقيه سابق، لو كانت السنة أن يعين كل فقيه خلفه، لأمكن القول، أن هذه السنة مخالفة للديمقراطية، لكن المواطنين أنفسهم هم الذين ينتخبون هذا المشرف على تطبيق القوانين.

الحق الشرعي للإمام ينطلق من انتماء أغلبية الشعب الساحقة للإسلام باعتباره مدرسة فكرية شاملة، وهذه الأغلبية تعطي رأيها فيمن يشرف على التطبيق والمطبقين.

أشرت في أسئلتك إلى الحكومة طبقة رجال الدين، وفي عبارتك خلط بين الحكومة الإسلامية وحكومة رجال الدين. كيف استنتجت من مفهوم الجمهورية الإسلامية، مفهوم حكومة رجال الدين؟! هل الإسلام دين طبقة رجال الدين؟! هل الإسلام أيديولوجية رجال الدين؟! هل أن مثقفينا ـ حقاً ـ يفهمون الجمهورية الإسلامية أنها حكومة علماء الدين، وأنها حكومة يتولى فيها علماء الدين كل مناصب الدولة؟!

إذا كان فهمهم كذلك، فهو غريب للغاية، وإن كانوا يفهمون الحقيقة لكنهم يصرون على تزويرها وتحريفها، فهو مؤسف للغاية.

إن تلميذ الابتدائية في إيران يفهم اليوم أن الجمهورية الإسلامية تعني المجتمع الإسلامي، والمجتمع التوحيدي القائم على أساس تصور إسلامي للكون والحياة.

كل من له أدنى اطلاع على المفاهيم الإسلامية يعلم أن التصور الإسلامي ينطوي على أيديولوجية توحيدية يعبر عنها بالتوحيد العلمي. وتعني بلوغ الإنسان إلى توحيد أخلاقي وتوحيد اجتماعي.

دأب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ أن يتوج رسائله إلى الشخصيات العالمية بالآية الكريمة:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ..) (آل عمران - 63).

وجملة : (أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاّ اللهِ) تعني التوحيد العملي الفردي.

وعبارة: (وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ) تؤكد التوحيد العملي الاجتماعي، المقارن للحرية والديمقراطية بأعمق أشكالها.

أين هذا المفهوم العميق للمجتمع الإسلامي من مفهوم حكومة رجال الدين؟! إنه بعيد عنه كل البعد.

يعتقد البعض أن إطلاق لفظ الجمهورية الإسلامية يضفي الصفة الطبقية على المجتمع، بينما الاكتفاء بلفظ الجمهورية ينفي هذه الصفة. وهذا الاعتقاد الخاطئ كما قلنا ناشئ عن فهم خاطئ لوظيفة الروحانيين (علماء الدين) في المجتمع الإسلامي.

ولابد أن أؤكد في اختتام إجابتي على سؤالك أن لفظ الجمهورية وحده يمكن أن يكون منطلق تحول واقعي في المجتمع. كما أن إضافة صفة وقيد إلى كلمة الجمهورية، لا يؤدي بالضرورة إلى تناقض بين الصفة والموصوف. بل ينبغي البحث أولاً في محتوى هذه الصفة، والصفة الإسلامية لا تتناقض مع الجمهورية، ولا تؤدي إلى تسلط طبقة معينة في المجتمع الإسلامي.

*** من المعلوم أن الأوضاع الاجتماعية في حالة تطور وتبدل، فكيف يستطيع نظام الجمهورية الإسلامية أن يحل المسائل المتطورة المعقدة للمجتمع في المجالات السياسة والاقتصادية والاجتماعية وغيرها من المجالات. هل أن الجمهورية الإسلامية ستطبق القوانين والقواعد التي جاء بها الإسلام قبل أربعة عشر قرناً؟! هل أن هذه القوانين والقواعد القديمة قادرة على مواجهة المسائل الراهنة؟.**

ـ تطور الزمن، وثبات الأحكام الإسلامية، يثيران دوماً هذه الشبهة التي ذكرتها, كيف يمكن أن ينسجم هذا الثابت مع ذاك المتطور.

مسألة تطور الزمن حقيقة ثابتة لا شك فيها، لكن هذه الحقيقة تنطوي على مسألة دقيقة يغفل عنها البعض.

المسيرة التي يطويها الفرد الإنساني والمجتمع الإنساني تشبه مسيرة قافلة متحركة سائرة منتقلة من محطة إلى أخرى. هذه القافلة لا تبقى ساكنة وثابتة في محطة معينة، بل تستمر في السير مغيرة محطاتها، لكنها لا تغير طريق سيرها في هذا التنقل.

القافلة متحركة، لا ينبغي لها أن تقف في نقطة معينة من طريقها، لكن الطريق الذي تطويه نحو هدفها واحد.

الفرد والمجتمع لا يمكن أن يكونا ساكنين، ولا ينبغي أن يمكثا في نقطة معينة من المسير، فذلك معارض لقانون الطبيعة لكن المسير التكاملي للفرد والمجتمع واحد لا يتغير.

ترى هل من الضروري أن يغير الفرد والمجتمع طريقهما التكاملي في كل مرحلة من مراحل حياتهما؟

هل من اللازم أن ينتخبا في كل مرحلة طريقاً جديداً وهدفاً جديداً؟! كلا.. المسيرة التكاملية للبشر، خط ثابت، يشبه مدار النجوم.

الحركة مستمرة، المدار ثابت. هل نستطيع أن نعتبر النجوم ثابتة ساكنة لأنها تتحرك على مدار ثابت واحد؟! كلا طبعاً. حركة النجوم لا تستلزم تغيير المدار باستمرار.

هذه المسألة تطرح بنفس الشكل على صعيد حركة الإنسان والمجتمع.

مستلزمات الحياة الإنسانية، ومظاهر المدنية تتطور باستمرار، ولكن ترى، هل أن إنسانية الإنسان والقيم الإنسانية، والكمال الإنساني هي الأخرى حقائق متغيرة متبدلة؟!

هل أن الموازين الإنسانية التي نؤمن بها اليوم هي غير الموازين التي كان يؤمن بها أجدادنا، وغير الموازين التي سيؤمن بها أحفادنا؟!

هل سيأتي يوم تعتبر فيه البشرية «تشومبي» و«معاوية» مثالاً للإنسانية، وتعتبر «لومومبا» و«أبا ذر» مثالاً لأعداء الإنسانية؟! هذا مستحيل.

الإنسان ـ كما قلنا ـ غير ثابت. لكن مداره ثابت. ومن هنا فهو يمتلك معايير هي بمثابة دلالات لطريقه. فكما أن المسافر يحتاج إلى عملات ودلالات كي لا يضل الطريق، كذلك الإنسان بحاجة إلى معايير ثابتة يهتدي بها في مسيره.

أوضحت في كتاب (حقوق المرأة في الإسلام) مسألة الإسلام والتطور، وكيف يواجه الإسلام متطلبات الحياة المتطورة.

ذكرت هناك أن (نوع) الإنسان لم يتغير منذ أن ظهر على ظهر الأرض، وعدم تبدل الموجود البشري من نوع إلى آخر لا يعني ثبات هذا الموجود في نقطة معينة، بل أنه طوى ولا زال يطوي مسيرته التكاملية. لكن قانون الخلقة يبدو قد نقل مهمة التكامل من مرحلة الجسم وأعضاء البدن إلى مرحلة النفس والروح والمجتمع.

لو أن تغيراً طرأ على النوع الإنساني لاستلزم تغيراً في القوانين التي تتحكم فيه.. لكن ثبات النوع الإنساني خلال المراحل التاريخية الأخيرة ـ على الأقل ـ يتطلب بالضرورة مجموعة مبادئ ثابتة ترتبط بطبيعة الإنسان وكماله. على أن الإنسان يحتاج أيضاً إلى قوانين متغيرة تسد احتياجاته المتطورة خلال انتقاله من محطة إلى أخرى، أو من مرحلة إلى أخرى خلال مسيرته التكاملية.

الإنسان يحتاج ـ إذن ـ إلى قوانين ومبادئ ثابتة ترتبط بحركته المدارية، وإلى قوانين متغيرة ترتبط بتنقله المرحلي.

أحكام الإسلام موضوعة لحركة الإنسان المدارية الثابتة، لا المرحلية المتغيرة. غير أن الإسلام أعد المقدمات والتمهيدات والأطر اللازمة لسد احتياجات الإنسان المتغيرة.

شرحت في كتابي المذكور خصائص القوانين الثابتة والمتغيرة في الإسلام بذكر بعض الأمثلة.

أمر الله تعالى الجماعة المسلمة أن تعد نفسها دفاعياً إلى المستوى الذي يخشاها فيه الأعداء:

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ) (الأنفال ـ 60).

هذه الآية تحدد واحداً من المبادئ الاجتماعية الإسلامية، وهو مبدأ ثابت لا يتغير، وضرورته قائمة في الماضي والحاضر والمستقبل.

التطبيق العملي لهذا المبدأ ينعكس في السنة النبوية بشكل حث من الرسول القائد على السبق والرماية، واشترك الرسول (ص) بنفسه في هذه العمليات والمسابقات. والفقه الإسلامي أوصى بالسبق والرماية أيضاً انطلاقاً من السنة النبوية. لكن هذا الحكم الفقهي لم يعد له مصداق حالياً، إذ أن زمانه قد مضى، وليس من الضروري القيام بتلك العمليات اليوم بنفس النية السابقة.

مبدأ (وَأَعِدُّواْ لَهُم...) يرتبط بمدار حركة الإنسانية، والسبق والرماية ليس لهما أصالة، بل يرتبطان بمرحلة معينة من مراحل المسير، وفي مرحلتنا الراهنة، ينبغي للمجموعة المسلمة أن تنفذ هذا المبدأ بشكل يتناسب مع ظروف هذه المرحلة ومتطلباتها.

ومثال آخر يرتبط بمبدأ تبادل الثروة بين المسلمين أوضحته الآية الكريمة:

(وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ...) (البقرة - 188).

هذه الآية تنص على أن تبادل الثروة ينبغي أن يتخذ شكلا مفيداً من الناحية الاجتماعية. وأن يتجه نحو تلبية الاحتياجات الأساسية للمجتمع.

لو أراد شخص أن يشتري بماله، الذي اكتسبه عن طريق عمل مثمر، شيئاً لا فائدة فيه، كأن يشتري كيساً مملوء بالحشرات الميتة، فإن هذه الصفقة باطلة في نظر القرآن.

ولو استطاع العلم في تطوره أن يستفيد من هذه الحشرات، فإن عملية البيع تصبح صحيحة بعد أن كانت باطلة ومحرمة من قبل.

الفقيه هو الذي يعين المصداق الواقعي للحكم الذي تنص عليه الآية في كل زمان. وبموجب هذا التشخيص يفتي بجواز هذه المعاملة وببطلان تلك.

الفقهاء واجهوا مسألة شبيهة بالمسألة السابقة ترتبط ببيع (الدم) وشرائه. لقد كانت معاملة بيع الدم وشرائه باطلة في الماضي، يوم كان الدم مادة لا نفع فيها ولا فائدة، إذ هي من نوع أكل المال بالباطل. واليوم فقد أضحى الدم - على أثر تطور العلم - مادة حياتية، ولم تعد المعاملة عليه تنطبق على أكل المال بالباطل. فالحكم الجزائي هنا قد تغيّر بتغيّر المصداق. لكن الحكم الكلي باقٍ لا يتغيّر.

الاجتهاد ينهض بالدور الأساسي في تطبيق الأحكام الكلية على المصاديق الجديدة. وواجب الفقيه أن يدرس المسائل الجزئية المتغيرة بتغير الزمان، في إطار الأحكام الكلية الثابتة التي جاء بها الوحي، ويخرج من دراسته بالأحكام الفقهية المناسبة.

*** لقد أوضحت في حديثك أن النظام الإسلامي يقوم على أساس المبادئ العامة المستعدة من الوحي. والمسألة المطروحة بشكل حاد على الساحة الفكرية اليوم هي أن النظام الأصلح للبشرية يمكن إيجاده عن طريق تركيب بين الديمقراطية والاشتراكية.**

ونحن، باعتبارنا شرقيين مسلمين، نستطيع أن نثري النظام الديمقراطي الاشتراكي عن طريق تطعيمه بقيم أخلاقية مستعدة من تراثنا الإسلامي، فما هو رأيكم بهذه الأطروحة؟

- بين يدي الديمقراطية والاشتراكية نوع من التناقض وعدم الانسجام. ولم تنجح - حتى الآن - المحاولات الرامية إلى الجمع بينهما.

الديمقراطية تقوم على أساس أصالة الفرد وحقوق الفرد وحرية الفرد، بينما تقوم الاشتراكية على أساس أصالة المجموع وتقدم حق المجتمع على حق الفرد.

في عالمنا اليوم ترفع بعض البلدان شعار الديمقراطية، وبعضها يرفع شعار الاشتراكية، لكن ذوي التفكير الجاد البعيد عن الشعارات يذهبون إلى زيف ادعاءات الديمقراطية التي يتبجح بها ما يسمى بالعالم الحر. وكذلك زيف الاشتراكية التي يدعيها القطب الآخر. ويبلغ هذا الزيف ذروته حين تدعّي بعض البلدان انتهاجها نظاماً اشتراكياً ديمقراطياً!

مسألة التناقض بين الاشتراكية والديمقراطية، والاتجاه نحو أحدهما، أو محاولة الجمع بينهما تطرح على الصعيد الفلسفي تحت عنوان: (أصالة الجمع أو أصالة الفرد).

أتباع هذين الاتجاهين يسعون إلى الإجابة على هذا السؤال:

هل الفرد يختص بالأصالة والعينية، والمجموع وجود عرضي واعتباري؟ أم أن الفرد يفتقد الأصالة، وعلم الاجتماع مقدم على علم النفس؟

إذا كان الجواب على الشطر الأوّل من السؤال إيجابياً فإن ذلك يعني تقدم الديمقراطية على الاشتراكية، ورجحانها عليها.

وإذا كان الشطر الثاني من السؤال إيجابا، فيعني أن كل ما يمتلكه الإنسان من أفكار ومشاعر وآمال إنما هي انعكاس عن الروح الاجتماعية المهيمنة، والموجود فعلاً، هو المجتمع لا الفرد. والأولوية في هذه الحالة للاشتراكية.

وهل هناك فرع ثالث لهذه المدرسة يتجه إلى تركيب الفرد والمجتمع تركيباً يمنح الفرد والمجتمع كلاهما أصالة وشخصية؟

هذه المسألة فلسفية دقيقة، يدرس فلاسفتنا نظيرها في باب الوحدة والكثرة، ولا مجال لطرحها الآن.

ومسألة القيم الخلقية التي أشرت إليها، هي أهم المسائل المطروحة أمام الباحثين عن النظام الأفضل. هؤلاء الذين يحاولون الجمع بين الديمقراطية والاشتراكية يحسون أن أطروحتهم بحاجة إلى قيم أخلاقية. والقيم الخلقية بحاجة إلى الجو الخلقي والروحي، فكيف يمكن خلق مثل هذا الجو؟ وما هي ضمانات تطبيق القيم الخلقية؟

بعض الباحثين في الأنظمة الوضعية، يحاول الفصل بين الدين والقيم الخلقية، في محاولة لإيجاد نظام أرضي أخلاقي.

هؤلاء يحاولون البحث عن مُثل خلقية بدون دين، زاعمين أن هذه المثل تستطيع أن تجمع أفراد البشر على صعيد إنساني واحد مشترك دون تمايز مذهبي أو عنصري، بينما الدين يؤدي إلى إثارة عصبيات ومناحرات بين أتباعه وغيرهم، وهذه العصبيات تتناقض مع سلامة الروح ومع الجو الخلقي الذي ينبغي أن يسود في المجتمع.

وهذه هي دعوة أتباع المذهب الإنساني أو (الهيومانية) التي تنادي بعالم خلقي روحي خال من الدين.

أتباع هذه الدعوة خالوا أن الأجواء الخلقية يمكن خلقها عن طريق إطلاق الشعارات الإنسانية وحبك المبادئ الهيومانية!.

شعارات الهيومانية أثبتت زيفها وخواءها على الصعيد العملي، وموقف (جان بول سارتر) ـ داعية الهيومانية في عصرنا ـ من إسرائيل، ذلك الموقف المتعاطف المؤيد، أفضل شاهد على هذا الزيف والخواء.

ثمة مجموعة أخرى حاولت أن تطعم أطروحتها في حقل النظام، بجوانب أخلاقية وإنسانية عرفانية. وسعت أن تقتبس من الجانب العرفاني للأديان التعاليم الأخلاقية، تاركة تصورات الأديان ومحتواها الأيديولوجي.

وهنا ينبغي أن أؤكد أن الالتزام بالجانب الخلقي للأديان وترك جوانبها الأخرى، لا يمكن على الإطلاق في الإطار الإسلامي، إن أمكن تنفيذه في إطار الأديان الأخرى.

عملية فصل الجانب الخلقي عن جوانب الإسلام الأخرى مُثلة للإسلام، ومسخ له، فالإسلام أطروحة منسجمة مترابطة لكل جوانب الحياة.

بالنسبة لما أشرت إليه في حديثك حول حاجة البشرية إلى النظام الأصلح، أكتفي بذكر عبارة قالها (إقبال):

«البشرية تحتاج اليوم إلى ثلاثة أمور: إلى تفسير روحي للعالم، وإلى حرية روحية للفرد، وإلى مبادئ أساسية ذات مفعول عالمي تدفع المسيرة البشرية نحو التكامل على أساس روحي».

وإقبال في عبارته هذه يؤكد على حاجة البشرية إلى نظرة إلهية للكون والحياة.. وإلى الديمقراطية واقعية حقيقية وإلى نظام شامل يقوم على أساس تلك النظرة الإلهية ويعين للبشرية طريقها التكاملي في جميع جوانب الحياة.

ثُمَ يستمر إقبال في حديثه على هذا النحو: «مثالية أوروبا لم تدخل الحياة الاجتماعية بشكل عامل حيوي، ونتج عن ذلك الإنسان الحائر بين الديمقراطيات المتضاربة وهو يبحث عن ذاته، حيث اتجهت تلك الديمقراطيات نحو استثمار الفقراء لصالح الأغنياء...

ومن جهة أخرى، يمتلك المسلمون أفكاراً ومعتقدات سامية متكاملة تقوم على أساس الوحي. وهذه الأفكار والمعتقدات تنطلق عن أعماق الحياة لتضفي على ظواهر الحياة صفة باطنية. الإنسان المسلم يؤمن بالأساس الروحي للحياة كأمر اعتقادي، وهو على استعداد لأن يبذل روحه رخيصة في سبيل هذا الاعتقاد»([1]).

*** أعلن الإمام في إحدى خطبه: أني أدلي صوتي «للجمهورية الإسلامية» لا كلمة أكثر، ولا كلمة أقل، ويبدو أن الإمام يقصد الصفة الإسلامية في عبارته «لا كلمة أقل»، وأوضحت في حديثك أن هذه الصفة توضح محتوى نظام المستقبل. أما ما يقصده الإمام من عبارة «لا كلمة أكثر» فهو ـ على ما يظهر ـ كلمة الديمقراطية، فقد ترددت على الألسن هذه الأيام عبارة «الجمهورية الإسلامية الديمقراطية» وتأكيد الإمام على حذف كلمة الديمقراطية قد يستهدف توضيح الفرق بين الديمقراطية الغربية والحريات الإسلامية.. نرجو أن تعطينا فكرة واضحة عن سبب حذف كلمة الديمقراطية.**

ـ لا أستطيع أن أدعي القدرة على توضيح جميع الجوانب التي ينطلق منها الإمام في حديثه، فأكتفي بتوضيح بعض الجوانب التي توصلت إليها، والتي أعلم أنها رأي الإمام أيضاً في هذا المجال.

الحرية الفردية والديمقراطية موجودتان ـ كما تعلم ـ في الإسلام، مع فارق بين النظرة الإسلامية والنظرة الغربية لمفاهيم الحرية والديمقراطية، كما سنوضح ذلك.

من هنا نفهم أن إضافة كلمة «الديمقراطية» إلى الجمهورية الإسلامية» تحشية زائدة.

إضافة إلى ذلك، فإن الحريات الفردية والديمقراطية التي سيتمتع بها الأفراد في ظل نظام الجمهورية الإسلامية، قد لا تعتبر في نظر بعض الأفراد منبثقة من الصفة الإسلامية للجمهورية، بل من الصفة الديمقراطية لها.

عبارة «الجمهورية الإسلامية الديمقراطية» تعني أن النظام يستند إلى أساسين: الإسلام، والديمقراطية. كما قد يفهم منها أن الحريات والحقوق الفردية والديمقراطية تنبثق من الأساس الديمقراطي للنظام، لا من الأساس الإسلامي. بينما أحكام العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية تنبثق من الأساس الإسلامي للنظام.

نحن نريد أن نؤكد على خلاف ذلك.

والسبب واضح:

أوّلاً ـ لأنّ الصفة الإسلامية تنطوي على الحريات الفردية والديمقراطية.

ثانياً ـ لأن الحريات الديمقراطية بمفاهيمها الغربية، تختلف اختلافاً جذرياً مع مفاهيم الحريات الإسلامية. وهذا الاختلاف الجذري لا يمكن أن نتجاهله في بناء مجتمعنا الإسلامي.

حول منشأ الحريات والحقوق الفردية قيل: إن الإنسان خلق حراً وينبغي أن يعيش حراً.

وبشأن جذور هذه القضية، وسبب عدم صدقها على البهائم مثلاً، تختلف وجهات النظر.

الفلسفة الغربية تذهب إلى أن الحرية ناشئة من رغبات الإنسان وميوله. وهذه الفلسفة لا تفرق بين إرادة الإنسان وميوله. وتنظر إلى الفرد باعتباره موجوداً ذا ميول ورغبات، وهذه الميول والرغبات هي منشأ حرية الفرد في ظل النظام الذي يريده. حرية الفرد لا يحدها شيء ـ في نظر فلاسفة الغرب ـ سوى حرية رغبات الآخرين. ولا يمكن لأية أطر وموازين أخرى أن تحد حرية الإنسان وميوله.

الحرية بهذا المعنى المشهود في الغرب هي أساس الديمقراطيات الغربية، وهي ليست في الواقع سوى نوع من الحيوانية مطلقة العنان.

التفسير الغربي لمنشأ الحرية، لا يستطيع أن يميز بين حرية الإنسان وحرية الحيوان. الموجود البشري مع حيوانيته إنسان مع إنسانيته حيوان.

الكائن البشري يتمتع بملكات سامية هي ملاك إنسانيته، ومن مظاهر هذه الملكات، التفكير المنطقي (لا كل ما يسمى تفكير)، والميول السامية >كالميل نحو اكتشاف الحقائق، ونحو الخير الخلقي، ونحو الجمال، ونحو عبادة الحق...<.

الكائن البشري موجود تنطوي طبيعته على قطبين متناقضين هما العقل والنفس، أو الروح والجسم. ومن المستحيل أن يستطيع الإنسان الانطلاق بحرية تامة على كلا الخطين المتناقضين. التقدم على أحد الخطين يؤدي بالضرورة إلى تحديد الانطلاق الحر على الخط الآخر.

لو اعتبرنا ميول الإنسان ورغباته، أساس الحرية ومنشأها، لنتج عن ذلك ما هو مشهود اليوم في مهد الديمقراطيات الغربية، حيث توضع القوانين استناداً إلى رأي الأكثرية.

انطلاقاً من هذا الأساس، واحتراماً للديمقراطية ورأى الأكثرية، يضحى الشذوذ الجنسي قانونيا هناك. الدليل الوحيد لمشروعية هذا العمل المنحط هو رأي الأكثرية. فما دامت أكثرية الشعب دلت عمليا على موافقتها على الشذوذ الجنسي، فإن هذا العمل يضحى قانونيا بحكم الديمقراطية.

لو طرحنا على حماة الديمقراطية الغربية هذا السؤال: أليس للإنسان صراط مستقيم يؤدي به إلى التكامل الروحي؟

إذا كان جوابهم إيجابا، لاستلزم أن يقبلوا ضرورة وجود مراقبة وتوجيه لصيانة الإنسان من الانحراف عن هذا الصراط المستقيم.. لكن جوابهم سلبياً، أي أنهم يرفضون وجود مثل هذا الصراط، ويعتبرون ميول الإنسان ورغباته هي التي تحدد معالم مسيرته. هؤلاء يتبعون نظرية (جحا) الذي قيل له: أين تذهب؟ أجاب: إلى حيث شاءت بغلتي.

والمجتمع القائم على أساس موازين الديمقراطية الغربية يتجه إلى حيث شاءت رغبات الأكثرية وميولها.

الديمقراطية الإسلامية تقع في النقطة المقابلة لهذا النوع من الديمقراطية والحرية.

الديمقراطية الإسلامية تقوم على أساس حرية الإنسان. لكن هذه الحرية لا تعني إطلاق عنان شهوات الإنسان، بل تعني كسر جميع القيود والأغلال التي تحد الإنسان من الانطلاق على طريق إنسانيته، مع تأطير وتحديد لدوافعه الحيوانية.

وهنا لابد أن أؤكد أن الإسلام ليس بدين كبح الشهوات وإماتتها. بل دين تأطير الشهوات وتنظيمها والسيطرة عليها، وهذه المسألة واضحة لا تحتاج إلى تفصيل.

لأضرب مثالاً على الفرق بين الحرية في مفهوم الديمقراطية الغربية والحرية في المفهوم الإسلامي، وأترك الحكم لك كي ترى أي الحريتين هي الواقعية والحقيقية.

يذكر التاريخ أن الملك (كوروش) ـ مؤسس أول إمبراطورية إيرانية ـ حين فتح بابل، ترك أهلها أحراراً في عقائدهم وعباداتهم. ترك عبدة الأوثان يلوذون بأصنامهم وعبدة الحيوانات يتمسحون بأنصابهم، دون أن يفرض عليهم أي حدود أو قيود. وكوروش هذا يعتبر في معيار الغرب أحد رواد الحرية في التاريخ. إذ أنه احترم ميول الناس ورغباتهم.

والتاريخ ذكر لنا أيضاً موقف (إبراهيم الخليل) من معتقدات شعبه. كان إبراهيم يرى في هذه المعتقدات المنحطة قيوداً وسلاسل تكبل الأفراد. وما كان موقفه تجاه معتقدات قومه موقف عدم الاحترام فحسب، بل موقف المحطم للأصنام والآلهة الكاذبة، وموقف المنبه لهم بزيف هذه الأصنام وخوائها حين عمد إلى وضع الفأس في عنق كبير الأصنام.

عمل إبراهيم ـ في معيار الديمقراطية الغربية ـ عمل عدواني مخالف لمبادئ الحرية. إذ أن إبراهيم كان ينبغي أن يدع قومه أحراراً فيما يعبدون ويعتقدون. غير أن منطق الأنبياء يختلف عن منطق الإنسان الغربي المعاصر.

خذ مثالاً آخر من عمل النبي (ص) حين ورد مكة. هل كان موقفه كموقف كوروش؟ هل ترك أهل مكة يلوذون بلاتهم وهبلهم ويعكفون على أصنامهم؟ هل ترك الناس وشأنهم لينتخبوا أي طريق يشاؤون؟ أم أنه عمد إلى تحطيم الأصنام ليحررهم من إصرهم والأغلال التي كانت في أعناقهم، وليهب لهم الحرية الحقيقية؟

الحرية والديمقراطية تقومان ـ في نظر الإسلام ـ على أساس ما يفترضه التكامل الإنساني للموجود البشري. الحرية حق للإنسان بما هو إنسان. حق منبثق من المؤهلات الإنسانية للإنسان، لا من ميوله وأهوائه.

الديمقراطية ـ في نظر الإسلام ـ تعني الإنسانية المنطلقة، بينما تعني ـ في قاموس الغرب ـ حيوانية منطلقة.

وثمة سبب آخر لتأكيد الإمام على حذف كلمة الديمقراطية من تسمية النظام المقترح في إيران، هو رفض التقليد الأعمى للموازين الغربية. الإمام لا يريد لشعبه أن ينبهر بالغرب ويلهث وراء فتات حضارية. فهذا يؤدي في النهاية إلى ضعف معنويات الشعب وإلى سقوطه.

الإمام يعتقد أن استعمال كلمة الديمقراطية في تسمية النظام خيانة لروح الاستقلال لهذا الشعب، إذ أن تراثنا ينطوي على جوهر الحرية، ولا حاجة لأن نمد يد التكدي إلى الآخرين.

* كيف تفسرون ثورة إيران؟ ما هي الخصائص التي تمتاز بها هذه الثورة؟ .. ماذا تعني الصفة الإسلامية للثورة؟.

ـ ...([2]) السؤال المطروح على صعيد الثورات الاجتماعية هو: هل أن الثورات ذات ماهيات مختلفة، أم أن أشكالها ومظاهرها هي المختلفة، وماهياتها واحدة.

ثمة اتجاهان مختلفان في الإجابة على هذا السؤال. الاتجاه الأول: يرى أن جميع الثوارت ذات مبدأ واحد ومنطلق واحد، وهو عبارة عن انقسام المجتمع إلى طبقتين مرفهة ومحرومة، مستثمِرة، ومستثمَرة. وهذا الانقسام الطبقي يعود بدوره إلى وسائل الإنتاج، وإلى علاقات التوزيع والإنتاج. وهذا الاتجاه يرى جميع ما في المجتمع من دين وفن وفلسفة إنما هو مرتبط بوسائل الإنتاج، وبتطور هذه الوسائل.

الاتجاه الثاني: يذهب إلى أن الثورات ذات ماهيات مختلفة، ويرفض أن تكون جميع الثورات الاجتماعية ناشئة عن التناقض الطبقي في الإطار الاقتصادي. وبرفض أن تكون قيادة الثورات دوماً بيد الطبقة المحرومة اقتصاديا. بل يعطي هذا الاتجاه دوراً أساسياً لطبيعة الإنسان المنطوية على قطبين متناقضين، ويعتقد أن انقسام المجتمع إلى قطبين متصارعين ناشئ عن القطبين المتصارعين في النفس الإنسانية.

كما أن الاتجاه الثاني ـ مع إيمانه بالتأثير المتبادل بين المرافق الاجتماعية ـ يرفض أن يكون تأثير أحد هذه المرافق قادراً على الوقوف بوجه تطور سائر المرافق الأخرى. أي أن المجتمع قد يمر بمرحلة تاريخية متطورة جداً من الناحية الدينية أو الخلقية أو الفلسفية مع تأخره في الناحية التكنولوجية. وهذه المسألة ترتبط بالظروف الجغرافية والوراثية من جهة. وبالبعد الإلهي والمعنوي للتاريخ من جهة أخرى. في كتابنا «نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ» أطلقنا على الاتجاه الأول اسم «الاتجاه الآلي» وعلى الاتجاه الثاني اسم «الاتجاه الفطري، أو الإنساني».

استناداً إلى الاتجاه الثاني:

أولاً ـ الجانب النفسي للإنسان مقدم على الجانب الاجتماعي.

ثانياً ـ الإنسان ينطوي في خلقته على قطبين متصارعين.

ثالثاً ـ الإنسان موجود مختار ذو إرادة حرة، وصفة الاختيار والحرية هي التي تميز بين أفراد البشر.

رابعاً ـ المرافق الاجتماعية للإنسان تتمتع بنوع من الاستقلال. وليس لأحدها تقدم وأولوية مطلقة على المرافق الأخرى . وفي هوامش الجزء الخامس من كتاب «أصول فلسفة وروش رئاليسم»([3]) ذكرت حيث تحدثت عن (فطرة البحث عن الله)، إن الانغماس في إشباع غريزة معينة قد يؤدي إلى تأخر غريزة أخرى. ومن هنا، فلا عجب أن يكون العالم المتطور علميا وتكنولوجيا، والمتمتع بأنواع اللذائذ المادية، منحطاً في أخلاقه وفي قيمه المعنوية، وهذا الانحطاط سيؤدي دون شك إلى سقوط كلي تام.

خامساً ـ انطواء الإنسان على قطبين متناقضين يؤدي إلى حرية الإنسان وإلى اختلاف مستوى الإنسانية أفراد البشر، كما يؤدي ـ إضافة إلى ذلك ـ إلى انقسام المجتمع إلى قطبين متناقضين، قطب يسير على طريق التكامل الإيماني والعقائدي والخلقي، وقطب منحط حيواني يعيش من أجل بطنه وفرجه.

سادساً ـ التكامل يعني الاستقلال عن مؤثرات البيئة الطبيعية، والسيطرة عليها، والتربية الذاتية، والاعتماد على النفس.

سابعاً ـ حركة تكامل التاريخ تتجه نحو (الحق) ونحو الارتباط بالعقيدة والإيمان والأهداف السامية. والتحرر من سلطة البيئة الطبيعية والاجتماعية والعوامل الطبيعية.

نستطيع ـ في الحقيقة ـ أن نلخص الاتجاه الثاني بما يلي:

أولا: الإنسان مفطور على أن ينشد الكمال والتطور.

ثانياً: القيم الإنسانية أصيلة بأجمعها، وذات جذور متعمقة في الطبيعة الإنسانية. وهذه القيم هي نفسها العامل الأساسي في حركات التاريخ.

الإنسان ـ على المستوى الفردي ـ يعيش صراعاً دائباً في أعماقه بين قطبين، قطب الإنسانية، وقطب الحيوانية. وحركة الإنسان تتجه، من خلال هذا الصراع. نحو التكامل بالتدريج. ومن مستلزمات التكامل، الاستقلال عن تأثير المحيط الخارجي والتأثير المتزايد في هذا المحيط. ومن هنا فالإنسان المتكامل موجود متحرر من المحيط الخارجي والداخلي (نقصد بالمحيط الداخلي، قطب الحيوانية في ذات الإنسان).

الجانب النفسي للإنسان مقدم على جانبه الاجتماعي.

والإنسان ليس بشريط تسجيل خال يمكن الإملاء عليه ما نشاء، وليس بمادة خام تتصيّر طبقاً لتأثير العوامل الميكانيكية الخارجية. الإنسان كالغرس وكالبذرة. حركته نحو الكمال ونحو الاستقلال الإنساني حركة ديناميكية لا ميكانيكية. التكامل من مستلزمات العناصر الحرة في الطبيعة بما فيها الإنسان والتاريخ الإنساني.

طبيعة التاريخ ليست بطبيعة مادية محضة، بل طبيعة مزدوجة، وكذلك طبيعة الإنسان. التاريخ ليس بحيوان اقتصادي، وهكذا الإنسان. وهذه الازدواجية في طبيعة الإنسان لا تتنافى مع خصلة الحركة التكاملية التي تنطوي عليها ذات الطبيعة.

مما تقدم نفهم أن الثورات ليست بذات صفة اجتماعية محضة، بل ذات جذور تمتد إلى طبيعة الإنسان.

الصراع الداخلي في الإنسان يؤدي إلى تكامل واستقلال بعض أفراد البشر، وهذا بدوره يؤدي إلى صراع بين الأفراد المؤمنين الملتزمين العقائديين، والأفراد المنحطين الراسفين في أغلال الحيوانية.

وهذا الصراع هو الذي يعبر عنه القرآن الكريم بالصراع بين الحق والباطل.

الاتجاه الآلي لتفسير التاريخ يذهب إلى أن عامل الحركة في التاريخ هو الطبقة المسحوقة اقتصادياً، وأن غايتها هو تأمين المصالح المادية، وأساسها تطور وسائل الإنتاج، وطريقتها إثارة الفوضى والاضطرابات. كما أن هذا الاتجاه ينفي أصالة الوجدان الإنساني ويعتبره تابعاً للمصالح الاقتصادية.

أما الاتجاه الفطري أو الإنساني فيرفض أن يكون عامل الثورة منحصراً بالطبقة المسحوقة اقتصادياً. ويرفض أن تكون الغاية مادية دوماً. كما يرفض ما يذهب إليه الاتجاه السابق في تفسير أساس الحركات وغاياتها. ويرى أن العامل في بعض الثورات كالثورات الدينية والفنية والخلقية والعلمية لا يقتصر على الطبقة المسحوقة اقتصاديا، والغاية فيها هي القيم الإنسانية أحياناً، كما أن أساسها هو الميل الذاتي للإنسان نحو طلب الحق والحقيقة، والطريقة فيها أحياناً الوقوف بوجه التلاعب بالقانون ومعارضة الخروج عن المبادئ القانونية، (قارن بين الاتجاهين!)...

الهدف في الثورات ـ استناداً إلى النظرية الفطرية ـ قد يتجاوز إطار المسائل الرفاهية والمعيشية، ويتخذ صفة عقائدية. وقد تأبى الطبقة المحرومة أن تضفي على مظاهراتها واظراباتها صفة مادية اقتصادية ـ كما حدث في إيران خلال الثورة ـ كما أن القيادة قد تطرح على الساحة شعارات لا تنحصر في النطاق الاقتصادي، بل تتجاوز هذا النطاق لتتخذ صبغة الآمال الإنسانية والمعتقدات السامية([4]).

من أجل تحليل ثورة إيران، ودراسة مدى انطباقها على النظريتين المذكورتين، ينبغي دراسة الثورة في الحقول التالية:

1ـ دراسة الأفراد والمجموعات التي حملت أعباء الثورة.

2ـ البحث عن العلل والجذور التي أسهمت في تفجير الثورة ودفعها.

3ـ دراسة الأهداف التي توختها الثورة.

4ـ دراسة الشعارات التي وهبت الحياة والحركة لثورة الجماهير.

5ـ تحليل دور العقائد وتكتيك القيادة.

6ـ دراسة شمول الثورة واتساع نطاقها الشعبي.

أما الجذور، فيمكننا أن نبحث عنها في أحداث السنوات الخمسين الأخيرة ومنها:

استبداد الاستعمار الجديد، وفصل الدين عن السياسة، والدعوة للعودة إلى عصر ما قبل الإسلام، وتحريف التراث الإسلامي، والمذابح الوحشية، والتفاوت الطبقي، وسيطرة العناصر غير الإسلامية على المسلمين، والنقض الصريح للقوانين الإسلامية، ومكافحة الأدب الفارسي الإسلامي بحجة مكافحة الألفاظ الأجنبية، والعزلة عن الشعوب الإسلامية وتوطيد العلاقة مع أعداء المسلمين كإسرائيل، والدعايات الماركسية... الخ.

بعض هذه الجذور ذات صفة مادية، وبعضها الآخر مرتبط بجرح المشاعر الإنسانية، قسم آخر ـ وهو ما له السهم الأوفى ـ يرتبط بجرح المشاعر الإسلامية.

وينبغي أن نضيف إلى تلك العلل والعوامل عاملين آخرين: الأول فشل الليبرالية الغربية. والثاني: تبدد الآمال في الاشتراكية الشرقية. وهنا يبرز دور وعي شعبنا المسلم في العودة إلى أصالته وفي إحساسه بكرامته الذاتية وفي موقفه من تراثه وفلسفته.

المسألة الأساسية هي القضية الإسلامية لشعبنا، الروح الإسلامية والهوية الإسلامية لشعبنا برزت بشكل واضح وجلي في الصراع الأخير الذي خاضه الشعب الإيراني. وهذا الوعي الإسلامي غير منفصل عن الوعي الإسلامي العام في العالم الإسلامي. فالشعوب الإسلامية بدأت تبحث عن هويتها الواقعية بعد أن يئست وخابت آمالها من أطروحات الشرق والغرب.

تحليل ماهية هذه الثورة لا ينفصل عن تحليل قيادة الثورة. لماذا أضحى الإمام الخميني قائداً مطلقاً بحيث اضطرت الأقطاب المخالفة أن تنضوي تحت لوائه؟ لماذا هذا التأثير الكبير الذي أحدثته نداءات الإمام الخميني وبياناته؟ لم كانت بيانات الإمام تنتشر في إيران كانتشار النار في الهشيم على الرغم من الأخطار التي كانت تواجه كل من يسعى في نشر هذه البيانات؟

نعم، لا شك أن شخصية الإمام، وما يتمتع به من صمود لا حد له في وجه الظالمين من أجل نصرة المظلومين، وما يتحلى به من صدق وصراحة وعدم مداهنة، كان له الأثر الكبير في تسلمه زمام قيادة الأمة. لكن المسألة الأساسية في هذا القائد كانت شيئاً آخر. إنها أصالة النداء الذي أطلقه الإمام الخميني.

فنداء هذا القائد انطلق من قلب ثقافة هذه الأمة ومن أعماق روحها، ومن مزيجها الحضاري.

لقد عاش شعبنا خلال أربعة عشر قرناً ملاحم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وزينب وسلمان وأبي ذر ... وأمثالهم، وهذه الملاحم امتزجت مع روحه وعقله، وها هو اليوم يسمع أنغام تلك الملاحم، التي ألفها من قبل، تخرج مرة أخرى من حنجرة هذا الرجل.

رأت الجماهير علياً وحسيناً مجسدين في شخص الإمام، كما وجدت فيه المرآة التي تعكس بشكل كامل ثقافتها المهانة المحقرة.

ما الذي فعله الإمام؟

إنه أعاد لهذه المجموعة من البشرية شخصيتها المفقودة، أعاد لها وجودها الواقعي وهويتها الإسلامية، وأنقذها من الضياع والذوبان. وهذه أكبر هدية منحها القائد لشعبه.

لقد استطاع الإمام القائد أن يعيد إلى الجماهير إيمانها بنفسها. وأعلن بصراحة أن الإسلام وحده قادر على إنقاذ هذه الأمة.

طرح الإمام على الساحة مسألة الجهاد الإسلامي، وحدد للجماهير واجباتها الدينية، وصوّر أمامها عِظم الشهيد والشهادة.

هذه الأمة التي عاشت طويلاً أمل الانخراط في زمرة أصحاب الحسين، ورددت صباح مساء عبارة خاطبت فيها شهداء الطف قائلة: يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً... هذه الأمة وجدت نفسها فجأة على مسرح كربلاء وتبوك وبدر وأحد وخيبر، وجدت نفسها أمام الحسين وجهاً لوجه.

هذا هو الذي هز الملايين من الأعماق، ودفع بها إلى أن تسبغ الوضوء من ينبوع الحب الإلهي، وتخرج مكبرة مهللة لتحطم عروش الظالمين.

* سؤالي الأخير عن مستقبل هذه الثورة.. هل تعتقدون أن بالإمكان صيانة معطيات هذه الثورة واستمرار مسيرتها، بحيث لا تعود الأوضاع السابقة ولا تنتهي الأوضاع إلى حالة سيئة؟

ـ من السذاجة ـ طبعاً ـ الاعتقاد بأن كل شيء قد تم. آثار النظام السابق لا زالت باقية، وهذه الآثار نتلمسها في كل ما كان يقوم عليه ذلك النظام من ثقافة عملية. ومن تركيب اجتماعي خاص.

لا زال كثير من أبناء شعبنا يصدر أحكامه على الطريقة الشاهنشاهية الآريامهرية. ومن هنا فنحن بحاجة أولا إلى كنس الثقافة الاستعمارية. وإلى تطهير البلد من آثار الاستعمار.

وإلى جانب هذا فهناك أياد تحاول إعادة الوضع السابق. وثمة مجموعات يسارية حاولت دفع الثورة نحو الشيوعية. وإضافة إلى هؤلاء وأولئك. هنالك (العلمانيون) الذين يريدون إبعاد علماء الدين عن الساحة، بعد أن استفادوا منهم في إسقاط النظام الشاهنشاهي، ليعيدوا ما قاموا به من دور في الحركة الدستورية الإيرانية وفي حركة استقلال العراق وفي الحركة الوطنية الإيرانية.

مع كل هذه الأخطار والمشاكل، تمتلك الثورة أقوى الأسلحة وأمضاها، إنه إيمان الشعب بقوته، وعودته إلى قيمه الإسلامية الأصيلة.

كل القوى الكبرى تخشى يقظة الجماهير المسلمة أشد الخشية. لو استيقظ الشرق المسلم لما استطاعت أن تقف بوجهه أعظم الأسلحة وأفتكها. وطريق هذه اليقظة هو العودة إلى تاريخنا وحضارتنا.

أتذكر أن طالباً سألني بعد انتهاء إحدى محاضراتي قائلاً: لو أن الإسلام كان قادراً على إنقاذ الشعوب وصنع الحضارة، فلماذا لم ينهض بهذه المهمة خلال أربعة عشر قرناً من ظهوره؟!

أجبته بسبب جهلك وجهلي بتاريخ الإسلام، فمن عوامل انحسار الإسلام عن الحياة جهل مثلك وأمثالك بالحضارة الكبرى التي أقام صرحها الإسلام في تاريخ البشرية.

ما كان بالإمكان إطلاقا أن تخضع أمتنا لسيطرة القوى الكبرى لو حافظت على ارتباطها بثقافتها الأصيلة. كل جهود المستعمرين انصبت على قطع صلة الأمة بتراثها الحضاري. ولقد شاهدنا بأم أعيننا الجهود الضخمة التي بذلت فيما يسمى باحتفالات «ذكرى مرور ألفين وخمسمائة عام على تأسيس الشاهنشاهية»! من أجل إبعاد الحضارة الإسلامية عن مسرح تاريخ هذه الأمة.

لا بأس أن أذكر هنا مثالاً آخر على محاولات النظام المندحر في هذا المجال.

قبل أن يغلق النظام البائد «حسينية إرشاد» كانت الإعلانات المرتبطة بدروس الحسينية ومحاضراتها تنتشر في الصحف بشكل رتيب. ولم تحذف الرقابة تلك الإعلانات، إلاّ إعلانا واحداً.

هذا الإعلان كان يرتبط بمحاضرة، تقرر أن ألقيها في الحسينية المذكورة حول حرق مكتبات مصر وإيران، وحول اختلاق حرق المسلمين لهذه المكتبات.

وأردت أن أدرج هذا الموضوع في كتابي «الخدمات المتبادلة بين إيران والإسلام»، لكني علمت أن الكتاب سوف لا يسمح له بالطبع إن فعلت ذلك.

هذه الحادثة تميط اللثام عن الاتجاه الإعلامي للنظام البائد، فقد أراد هذا النظام أن يغرس في أذهاننا أن الإسلام لم يبين أية حضارة، بل أباد الحضارات السابقة.

قلت لذلك الأخ السائل: ربما كان اعتراضك صحيحاً لو أن الإسلام لم يبين في تاريخه أية حضارة، لكن العالم الإسلامي فرض سيادته العلمية والثقافية على المعمورة لمدة خمسة قرون.

وأوروبا اليوم مدينة للحضارة التي شيدها الإسلام. وأنه لواضح لدي كوضوح الشمس أن الفلسفة الاجتماعية الإسلامية متفوقة على فلسفة الحياة الغربية تفوقاً كبيراً.

انتصار نهضتنا في المستقبل يرتبط إلى حد كبير بإيماننا بأنفسنا، وبقدرتنا على إحياء القيم الإسلامية الأصيلة.

لو واصلنا طريقنا على أساس الموازين الإسلامية، وأزلنا مفاسد مجتمعنا ومعايبه على هذا الأساس أيضاً، وتحلينا بالصبر والتقوى وتحلينا بروح الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأضحى انتصارنا حتمياً لا شك فيه.

أنظر إلى الحركة الفلسطينية، ستجد أن بُطأها في تحقيق أهدافها يعود بالدرجة الأولى إلى عدم نقائها الإسلامي، وإلى وجود تيارات شيوعية في داخلها.

وفي أحداث نهضتنا هذه، رأينا أن شهادة شاب مسلم تؤدي إلى تصاعد الثورة واستفحالها، بينما يؤدي مقتل فرد من مجموعات غير المسلمة إلى بطء حركة النهضة، وذلك لأن الجماهير كانت على علم بآراء هذه المجموعات بشأن الكون والحياة والمجتمع... وكانت الجماهير تخشى دوماً أن تقع السلطة بأيدي هذا المجموعات اللا إسلامية أن سقط النظام الشاهنشاهي.

النظام البائد كان على علم بنفور الناس ومقتهم للماركسية حين أطلق على المسلمين المناضلين اسم «الماركسيين الإسلاميين».

لقد بدأ المسلمون يعون في كل العالم أن الطريق الوحيد لتحررهم من قيودهم وأغلالهم ينحصر باعتمادهم على قدرتهم.

تاريخنا المعاصر أثبت بوضوح أن الشيوعية والإمبريالية ـ على تناقضها الظاهري ـ كشقي مقص اجتمعا على هدف واحد.

اعتقد أن الوقت قد حان ليرتفع نداء العودة إلى الإسلام، لا في مجتمعنا فحسب، بل في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ولو قُدّر لهذا النداء أن يرتفع، لسمعنا معه أصوات تحطم السلاسل والقيود التي تكبل مسيرة هذه الأمة وطاقاتها، ولشهدنا ولادة الأمة الإسلامية المقتدرة من جديد.

* أشكرك فضيلة الأستاذ...

([1]) إحياء الفكر الديني في الإسلام، إقبال اللاهوري، ص203 ـ 204، من الترجمة الفارسية.

([2]) يشرح الأستاذ الشهيد في مقدمة إجابته المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة (انقلاب) التي تستعمل في معنى (الثورة) باللغة الفارسية.

فالمعنى اللغوي ينطوي على جانبين: سلبي، جاء في الآية الكريمة: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أو قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ}؟! (آل عمران، 144).

وايجابي، ورد في الآية: {فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ ...} (آل عمران، 147).

أما في الاصطلاح، اتخذت الكلمة في الفقه والفلسفة وعلم الاجتماع معاني مختلفة...

ثم يذكر الأستاذ أن (الانقلاب) فردي واجتماعي. والفردي: حيواني وإنساني. كالتغيير الفجائي الذي يحصل في نفس بعض الأفراد لينتج عنه اندفاعاً محموماً وراء طلب الجاه والشهرة والاستزادة من الشهوات، وكالحب باعتباره تغييراً في المحتوى الداخلي للأفراد، وكالتوبة باعتبارها ثورة ضد الذات المنحرفة الظالمة.. ثورة النزعة المتسامية ضد نزهة الهبوط والانحدار..

ثم يبدأ بالحديث عن (الانقلاب) الاجتماعي، وهنا تدور الإجابة عن معنى (الثورة) بالذات..

ولما كان حديث الأستاذ عن كلمة (انقلاب) في هذا المجال يختص باللغة الفارسية، فقد آثرنا عدم ترجمته إلى القارئ العربي. (المترجم).

([3]) كتاب «أصول فلسفة وروش رئاليسم»: مبادئ الفلسفة ومنهج الواقعية، للعلامة الكبير محمد حسين الطباطبائي، والأستاذ الشهيد أضاف إلى الكتاب شروحاً وهوامش هي أعمق ما خلفه + من بحوث فلسفية (م).

([4]) ما ذكره الأستاذ الشهيد عن اتجاهي تفسير التاريخ، هو موجز لما ذكره بالتفصيل في كتاب «نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ»، هذا الكتاب ترجمناه إلى العربية، وطبعته «المكتبة الإسلامية الكبرى» (م).

دعائم

الثورة الإسلامية

تمهيد

كان للشهيد الأستاذ مرتضى مطهري دور بارز وفعال في الثورة الإسلامية الغراء في إيران.. وهو غني عن التعريف، ولست في صدد تعريفه.

وله نتيجة لدوره المهم آثار فكرية قيمة هي التي تدل عليه وتشير إلى المحور الذي كان يشغله.. وانطلاقاً من إحياء تلك الآثار اخترت قسماً من محاضراته التي ألقاها في كلية الإلهيات.. وبعض الخطب التي قيلت في مساجد عدة.. ومقابلات صحفية كان قد أجراها معه تلفزيون الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

ولقد بذلت جهداً ليس بالهين لأن تبقى روح الشهيد الطاهرة مخيمة علينا ونحن نقرأ له.. فلذلك لم أتصرف في تغيير الفكر التي طرحها بل بقيت محافظة على جوهرها، اللهم إلاّ من حذف لبعض ما هو متكرر..

ولا أدعي الكمال لهذه المجموعة من حيث الإخراج والتنقيح وذلك لأن الشهيد لم يكن حاضراً آنذاك ولو كان لكانت أفضل وأكمل من غير شك..

ومع ذلك يبقى هذا الكتاب إرثا ذا قيمة وفائدة جليلتين، عسى، بل نرجو الله سبحانه وتعالى أن ينتفع به الكثيرون، وأكون بذلك قد سلطت بعض الأضواء على الطريق الذي يجب على المسلمين كافة السير عليه، والذي يوصلنا إلى النبع الحقيقي الذي لا ينفد، نبع الإسلام الحنيف..

ولا يسعني في هذا المقام إلاّ أن أتقدم بالعذر من القراء الكرام، خاصة من الذين تجانسوا مع آثار الشهيد.. أتقدم من الجميع بالعذر من النواقص التي قد يجدونها، من حيث التبويب والتنظيم لهذا الكتاب..

والله من وراء القصد

المحاضرة الأولى

حرية العقيدة

ألقيت في كلية الإلهيات

يوم الثلاثاء المصادف

2/ 2/ 1922

بسم الله الرحمن الرحيم

رغم انشغالي المتزايد في هذه الآونة الأخيرة أحببت أن أجيبكم إلى دعوتكم لي بإلقاء محاضرة في الكلية..

وقبل الخوض في الحديث أود أن أوضح بأنني لم أستطع أن أهيئ محاضرة متكاملة ألقيها عليكم وذلك لعدم وجود وقت لدي كما ذكرت لكم.. ولكنني وضعت مسألتين نصب عيني أرغب في الحديث عنهما.

الأولى: ذات علاقة وثيقة بمكان المحاضرة، وذلك لأن هذه الكلية ذات رسالة مهمة خطيرة، باعتبار أنها تدرس الإلهيات والمعارف الإسلامية.. فعلينا أن نعرف الأسلوب الذي تؤدي رسالتنا للمجتمع، وهل هذا الأسلوب أعطى مفعولاً جيداً؟ وهل هناك أسلوب أفضل منه لنجاح المهمة الموكولة إليها؟ أقول هذا لأننا نلاحظ أننا في هذا العصر نخوض نهضة إسلامية مقدسة..

أما المسألة الثانية: فهي ترتبط بشكل أو بآخر بهذه الكلية ألا وهي الحرية، وحرية العقيدة التي هي موضع بحث في كثير من الأوساط الفكرية..

فأما بالنسبة للمسألة الأولى فإني أرى أن رسالة هذه الكلية هي جزء لا يتجزأ من رسالة الإسلام الخالدة.. فمن أسسها التوجيه الصحيح، والتفسير المنطقي، والدفاع الحق عن العقيدة الإسلامية.. أما أنه هل نجحت في تأدية مهمتها وقامت بالواجب الملقى عليها كما يجب، فإنه حديث في ما مضى ولا أريد التعرض له، لأن ما يهمني فعلاً هو مستقبل هذه الكلية وما ستؤول إليه .. واعتقادي الشخصي بأنها يجب أن تكون مرآة للعقيدة الإسلامية، وعلى الأساتذة والطلاب الملتزمين أن ينهضوا بهذا الأمر..

أما بالنسبة للمسألة الثانية، مسألة الحرية.. فعلينا أن نرى ما هي الحرية؟ وهل لها حدود معينة في حياة الإنسان؟ هناك نوعان من الحرية، أحدهما: ما يسمى بالحرية الإنسانية، والثاني: يدعى الحرية الحيوانية، أي حرية القوة الغضبية والقوة الشهوانية، وهي أن يطلق الإنسان العنان لشهواته وغرائزه وهواه.. ومن الواضح أن من تكلم في موضوع الحرية مناقشاً أو معالجاً أراد بها الحرية الإنسانية..

فالإنسان بما هو إنسان يملك قدرات شتى وطاقات حيوانية، ولكن القدرات هي أسمى وأرقى من الطاقات الحيوانية..

وهذه القدرات تارة تنتج عن العواطف الإنسانية والميل النفسي أو الرغبة الشديدة التي تكون حافزاً للإنسان نحو ما يرغب ويشتهي.. وأخرى تنتج عن تفكر وتدبر حسب نظرة الإنسان الشخصية إلى الحياة.. وعلى كل حال تبقى هذه القدرات منشأ الحرية السامية للأهداف..

وأريد أن أتحدث بشكل مختصر عن نقطتين هما: حرية الفكر، وحرية العقيدة.. فحرية الفكر ناتجة عن القدرات الإنسانية التي تمكنه من التعمق في معنى الحياة.. والتطور الإنساني والتكامل البشري يكمنان في حرية الفكر، فإذا كان الإنسان ذو فكر حر صائب استطاع أن يميز بين الأمور وأن يرقى إلى أعلى المستويات.. أما حرية العقيدة فلها خصائصها المميزة المختلفة.. ومن البديهي بأنه ليس كل عقيدة ناتجة من فكر صحيح.. ومما لا يخفى على أحد أن هناك عقائد كثيرة ناتجة عن عادات أو تقاليد أو مستندة على العصبية، وهذه عادة تكون سيئة وغير قادرة على حل مشاكل المجتمع التي تظهر فيه، بل أنها تحدد فكر الإنسان وتجمده على ما اعتاد من أموره اليومية أو السير على ما كان عليه الآباء والأجداد، وضررها واضح للبشرية.. لذا لا نستطيع أن نأخذ بكل عقيدة تصادفنا، أو نسلم بعقيدة إنسان يعبد الحجر، لا لشيء إلاّ لأنه فكَّر، وأوصله فكره إلى مزاولة هكذا عبادة بحجة أن حرية العقيدة مقدسة! بل علينا ان نحرر عقله ونصحح فكره، ونقتدي بسيدنا إبراهيم خليل الله (ع)، وكلكم يعرف قصته (ع) مع قومه الذين كانوا عبدة أصنام.. فاستغل النبي إبراهيم (ع) خروج الناس من المدينة في إحدى الأعياد وحطم الأصنام بمعوله وأبقى الصنم الأكبر معلقاً عليه المعول، كي يظن الناس أن الآلهة اختلفت في ما بينها وتغلب الأكبر عليها بعد تحطيمها.. وغايته من هذا إلفات نظر الناس حتى يتساءلوا: هل من المعقول أن يتحرك الصنم ويتصارع مع جامد مثله، وفائدة التساؤل هنا هو أن يتسرب الشك في إلوهيَّة ما يعبدون.. وأنبئنا القرآن الكريم عن نتيجة هذا العمل وما أسفر عن ذلك التساؤل بقوله جل ثناؤه: (فَرَجَعُوا إلى أَنفُسِهِمْ) وبنظر القرآن أن النفس الحقيقية للإنسان مؤلفة من العقل والفكر والمنطق الصحيح. ومن يرجع إليها مجرداً عن الأهواء سيدرك الحقيقة قطعاً.. فعمل الرسول هنا مناقض لمفهوم حربة العقيدة بالمعنى المتعارف عليه! فهل توافقه على ذلك أم لا؟ وهل كان عليه أن يعتقد بما اعتقده قومه لمجرد أنهم الأكثرية وهو فرد واحد؟ فلو ناقشنا المسألة من وجهة نظر إسلامية لوجدنا أن الحق كل الحق مع الرسول إبراهيم (ع) وذلك لأنه لو وافقهم على عبادتهم لكان إغراء لهم في الاستمرار بالجهل والظلم، ونفس الموقف رأيناه قد صدر من الرسول الأعظم محمد (ص) عندما فتح مكة، فإنه حطم الأصنام تحطيما، لأنه رأى الناس مأسورة فكرياً لها، فكسرها وحرر الناس من المخاوف والاعتقاد الفاسد بأنها الآلهة.. فلنقس هذا العمل الجبار بما فعلته ملكة انگلترا خلال زيارتها للهند، فإنها خلعت نعليها قبل أن تصل إلى معبد مقدس للهنود بأمتار عديدة، حتى يقال بأن الانگليز يحترمون المقدسات ويقدرون حرية العقيدة ولا يخفى ما ينطوي عليه هذا العمل من حيل استعمارية، وذلك لأن عدم إفهام الناس عن فساد معتقداتهم وبدلاً من إخراجهم من الظلام إلى النور، يعمل الاستعمار على إبقائهم مأسورين ومغلقين تحت مفاهيم واهية مما تسبب الشلل الحضاري وعدم الصعود في سلم الرقي، كي يبقى الهندي راضخاً تحت الاستعمار البريطاني.. وهذا ما فعله كوروش لما فتح بابل مع عدم اعتقاده بأن تلك الأصنام هي الآلهة.. فماذا يفسر هذا من الناحية الإنسانية؟ هل يطلق عليه حرية؟..

لنستأنف الكلام حول حرية الفكر، التي هي تناقض الجمود الفكري على أشياء وتقاليد بالية بدعوى حرية الاعتقاد أو التفكير.. إن كل عقائدي يؤمن إيمانا عميقا بعقيدته يحترم حرية الفكر، أما من لا يؤمن إيمانا راسخاً بما ينادي به يعملون على وضع الناس في دائرة فكرية محددة لا يتجاوزونها.. خذ مثالاً على ذلك، فالدول الشيوعية حتى لا تتأثر بالأفكار الأخرى المضادة لها، فقد ضيقوا على شعوبهم بحيث منعوا الاتصال بهم بشكل أو بآخر، فالراديو صنع لهم على هيئة حتى لا يلتقط إذاعات أخرى بعيدة .. أما في الجمهورية الإسلامية فإنني أعلن وبصوت عال بأنه سوف لن تكون عندنا أي حدود للفكر، وسوف لا تصاغ الأفكار في محور معين، ونظامنا سوف لا يجبر على المسير في خط معين لجميع الأفكار.. يجب أن يكون الشعب، كل الشعب حراً، كي نحصل على أفكار صحيحة نابعة من الذات وهذه الحرية التي سنعمل على تكريسها بعيدة عن المؤامرات والنفاق...

قبل ثلاثة أيام التقيت مع شباب يؤمنون بالشيوعية، فطرحوا علي السؤال التالي: هل الشعار الذي يحمل عناوين مثل: اتحاد ـ حرية ـ نضال سيء؟ أجبت: كلا. قالوا: فلنجعل هذه العناوين هي القواسم المشتركة بيننا. قلت: إننا متفقون على العنوان دون المعنون، وذلك عندما تطرحون النضال نريد أن نعرف هذا النضال ضد من؟ هو نضال ضد النظام الحالي ثم نضال ضد الدين.. فإنكم تطرحون شعارات رنانة تمويهاً لمآربكم، وحتى تضمنوا التفاف الناس حولكم فقط.. أما أنا عندما أقول نضال أحدد فوراً قصدي والهدف الذي أرمي إليه، فأقول إنني أناضل ضد الإمبريالية أولاً ثم ضد الشيوعية.. أنتم لا تعتقدون بأن الإمام الخميني هو القائد الذي يجب أن يتبع، لأنكم تقولون بأن السير معه هو مرحلي، وبعد اجتياز تلك المرحلة ستحاربونه، فلماذا إذن ترفعون صوره في مسيراتكم؟ أتكذبون على الناس؟ هو يؤمن بالله ويسير على هدى القرآن، وأنتم تؤمنون بأقوال ماركس ولينين.. لماذا لا تعلنون صراحة ما تعتقدونه حقا؟ لماذا هذا الخداع والنفاق والاحتيال؟ وإني أعلم بأنكم مستفيدون من الحرية الموجودة في الجمهورية الإسلامية...

إن الإسلام هو منبع حرية الفكر، ولكم الحرية في أن تسيروا على خطى تفكريكم.. قبل سنين أرسلت رسالة إلى الكلية مطالباً أن تخصص كرسياً في المجلس الأعلى للكلية لأصحاب الفكر الشيوعي، وأستاذ الكرسي يجب أن يكون ماركسياً ليدرس ما يعتقد به، ونحن نناقشه مناقشة مفتوحة، والغرض من هذا أن نمنع الألاعيب والخداع..

وبالتالي نحن نرفض أن يفسر الماركسي أية آية قرآنية لأنه يفسرها بما يتماشى مع هواه لا بما هو الحق.. أقول هذا لأني رأيت أن بعض الأفكار الماركسية تبلغ تحت الشعار الإسلامي، وهذه هي الخيانة العظمى.. منذ أيام وصلني كتيب فيه تفسير القرآن، وأول ما لاحظته أن مؤلفه إما جاهل أو متجاهل، فإني أعتقد أنه من الذين انجرفوا في الخط الشيوعي، وذلك لأن التفسير كان ماركسياً، خذ مثالاً على ذلك: عندما وصل إلى قوله تعالى: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) فسر (الغيب) على أنه مرحلة الغيب ومرحلة الشهادة، بمعنى أن النظام الإمبريالي الذي يسعى الناس لإسقاطه فلا يقدرون على ذلك مباشرة لأنه يملك قوة قاهرة فيعمل الثوار على أن لا يكشفوا أنفسهم، أي العمل السري، وهذا ما يسمى مرحلة الغيب، أما بعد سقوط النظام تدخل مرحلة شهادة الثورة.. ومعنى هذا أننا إلى السنة الماضية في مرحلة غيب الثورة، والآن نحن في مرحلة شهادة الثورة.. نسأل: لماذا هذا اللف والدوران؟ وهل تفسير القرآن اعتماداً على هواكم وأقاويلكم يعتبر حرية فكر؟ أم أنه طعن في أفكار الآخرين؟

إن القرآن كتاب سماوي، وحي من عند الله، وكل من لا يعتقد بمعجزته فلا يخلو إما أن يكون جاهلاً أو كاذباً، وبالأساس هو غير مسلم.. وعلاوة على إعجازه بعد ذاته، فقد نقل لنا معجزات حصلت في القرون الغابرة.. أذكر على سبيل المثال قصة أصحاب الفيل وهي: أن أبرهة الحبشي لما عظم سلطانه أراد أن يوسع ملكه فتوجه نحو الكعبة الشريفة معبد إبراهيم خليل الله قاصداً تحطيمها.. فأرسل الله طيراً من البحر الأحمر يدعى (أبابيل) يحمل كل طير منها حجراً فقذفوها على الجيش الجرار، كالجراد الذي يهجم على القمح، فهلك الجيش شر هلكة.. وإلى هنا الحوادث قطعية لأن القرآن نقلها حرفياً، أما من ناحية التفاصيل فالأمر ظني، إذ يقال أن الجنود ابتلوا في مرض الآبلة - وهو مرض جلدي أو ما يشبهه - والسورة التي تنبئنا بالقصة نزلت على محمد (ص) بعد أكثر من أربعين سنة، وكان يوجد أشخاص قد رأوا الحادثة معاصرين النزول، وأكثرهم ممن لم يؤمن بالرسالة المحمدية، فلو كانت القصة فيها شيء من الكذب لطبلوا وزمروا كثيراً.. لنرى ذلك الماركسي الذي فسر هذه السورة ماذا يقول.. قال: في عام الفيل كان يوجد ثوريون يناهضون الاستعمار العالمي، وكان مقر الثوار مكة، فجيش الاستعمار جيشاً قوياً للقضاء عليهم، فما كان من الثوار إلاّ أن ردوا هجومهم وكانوا كالطيور وثوباً حتى هزموا الجيش.. ثم يقول الكاتب: وعدم ذكر ذلك في التاريخ لا يجعلنا نتخلى عما نقول..

أقول: إن فهم القرآن بهذه الصورة لخطأ فادح.. ولا يسعني إلاّ أن أنصح هؤلاء الأخوة بعدم اللجوء إلى تشويه معنى القرآن، إذ هناك من جد واجتهد وأشغل عقله وأوقد فكره ليل نهار حتى يحصل على التأويل الصحيح للقرآن الكريم..

إن القرآن أنبئنا بان لله ما في السموات وما في الأرض وعنده الإرادة التكوينية التي إذا توجهت نحو شيء تقول له: كن فيكون.. لكن الفكر المادي يزعم أن المادة مستقرة بحد ذاتها ولا يمكنها أن تخرج من مصيرها، لذا فإن تفسيرات معتنقيه للآيات القرآنية تنبع من ذلك الزعم، منكرين أن الله على كل شيء قدير.. وإني أعلن مجدداً بأن نشر هكذا آراء هي ليست لصالح الإسلام بل لصالح الاستعمار وحده..

لقد أكد الإمام الخميني بان الأحزاب، كل الأحزاب، تمارس نشاطها السياسي بكل حرية في ظل الجمهورية الإسلامية ولو لم تعتنق العقيدة الإسلامية شرط عدم التآمر على الجمهورية أعطينا الحرية الكاملة للشعب كافة في أن ينتقدوا ويناقشوا عقيدتنا حتى غير المذهبيين، فليناهضوا الإسلام بدون حرج، ونحن بدورنا نردهم ونجابههم بالمنطق الصحيح الصريح.. وهذا مما لا تجدوا له مثيلاً في العالم أجمع.. وهذه الطريقة كانت عنصراً مهماً في استمرار الدعوة الإسلامية.. ولو جابه المسلمون الأوائل في صدر الإسلام المنافقين والمارقين الخارجين عن الدين بالعنف والقسوة لما بقي أثر للإسلام في عصرنا الحالي فيجب إتباع الحوار والمناقشة مع أعداء الإسلام، وبهذا يثبت ويبقى ما بقي الليل والنهار.. وهذا الأسلوب الذي كان عليه إمامنا الصادق (ع) إذ ينقل أن رجلاً اسمه (مفضل) كان يصلي في المسجد وجلس بقربه رجلان من أتباع الفكر المادي، قال أحدهما محدثاً صديقه: إن النبي لم يكن مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر، بل إنه استغل هذه المفاهيم وخرج على الناس باسم دين جديد وذلك ليحدث تغييراً في مجتمعه وكان نابغة عصره مما ساعده على إحداث ما يريد.. فما انتهي (مفضل) من صلاته ابتدأ بالصراخ عليهما وقذفهما بشتى النعوت: يا كفرة، يا فسقه وما شابه، قال له أحد الرجلين: إلى أي مذهب تنتمي؟ قال: أنا من أصحاب الإمام الصادق (ع). قال الرجل له: نكون عند الإمام ونتكلم بحضرته كلاماً أشد عنفاً وأكثر كفراً ولا يظهر عليه

الغضب، بل نظن من حسن إصغائه نتوهم بأنه قد اقتنع بحججنا، حتى إذا فرغنا من مقالتنا يتوجه إلينا بكلام رصين متين فيبطل ما أثبتناه ويثبت ما أبطلناه بكل هدوء واحترام وأدب...

بهذا الأسلوب امتد الإسلام منذ نشوئه، وعلى الحوار والمناقشة اعتمد العلماء المسلمون في رد مزاعم الملحدين، ودونوا تلك المناقشات في كتبهم لتبقى أضواء يشير بها المسلمون فانظروا إلى كتاب (الاحتجاج) للطبرسي أو (احتجاجات البحار) فسترى ما أقول.. إنني أعلن صراحة إلى الشباب المسلم بأن حفظ الإسلام والدفاع عنه لا يتم بالقوة ولا بمنع الملحدين من إبراز معتقداتهم، بل أن الذود عن الإسلام لا يكون إلاّ عن طريق العلم وإعطاء الحرية للأفكار المضادة وإبرازها، حتى تقابل من قبلنا بالمنطق الصحيح...

أريد أن أؤكد بأنه لا يوجد في العالم ثورة مشابهة لثورتنا الإسلامية وذلك لأن دعائمنا كانت الإيمان المطلق بالله سبحانه وتعالى والشعب المؤمن بالإسلام قولا وعملا، فالعقيدة الإسلامية راسخة في نفوس الشعب، وأوضح مثال لذلك، الطيار الذي تكفل بنقل الإمام الخميني من باريس إلى طهران هُدد من قبل الطغاة بالطرد، وقيل له بأن طائرته ستقصف بالمدفعية، ومع كل هذا وذاك برهن على جرأة وإقدام ولم يبال بالمخاطر حتى اضطر النظام أن يسمح له بانجاز المهمة، أما من يزعم بأن الدين هو للمعتمرين فقط، وأنه علامة على التأخر الثقافي للمنطقة التي يحل فيها، فهذا الزعم يدحضه ما وجدناه في النهضة التي عمت البلاد واشترك فيها الفلاح والمثقف والعامل والأستاذ والموظف والمحامي والطبيب، فهل بإمكان أي مذهب غير الإسلام أن يستقطب هكذا قوة بشرية فعالة في جميع مرافق الحياة.. يعتريني إحساس قوي بأن هذه الثورة ستكون قدوة للثورات في جميع البلدان الإيرانية..

علمت أن (كارتر) أرسل رسالة لآية الله الخميني يبلغه فيها أن القوتين الجبارتين في العالم تساند وتؤيد حكومة (بختيار)، ولكن هذا الرجل العظيم لم يبد أي اهتمام بهذا التهديد.. لقد درست اثنتي عشر سنة عن عبقريته وعن أساس نجاحه فرأيت أن قائد ثورتنا يؤمن بأربعة أشياء، أولا: إيمانه بالله العلي العظيم، قال لي في جلسة خصوصية أن هذا الإنتصار كان يعتمد في الدرجة الأولى على العناية الإلهية التي تدخلت لصالحنا، وصدق الرحمن في قوله (إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)، وهذا مماثل ما كان مع أصحاب الكهف، إذ يقول القرآن الكريم: (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى).. ويقول عزّ من قائل: (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).. هذه العناية الإلهية ظاهرة في هذا الرجل بوضوح، فلقد قام من أجل إعلاء كلمة الله، فهداه ربه قلباً خشناً في ذات الله لا يعرف الخوف ولا التردد.. إن الأطباء الفرنسيين عندما فحصوا قلبه قالوا: إن رجلا عاش خمسة عشر سنة تحت الضغوطات الفكرية والعصبية لا زال ينبض كقلب شاب لهو أمر عجيب.. ثانياً: إيمانه بالهدف الذي يسعى لأجله، فلو اجتمع العالم ليصرفه عنه لما استطاع إلى ذلك سبيلاً.. ثالثاً: إيمانه بالطريق الذي يسلكه.. رابعاً: إيمانه بقوله، فبين كل أصدقائي والثوار القياديين لا أعرف أحداً أكثر منه خبرة ومعرفة بطبيعة الشعب الإيراني فعندما كنا نطلب منه أن يتساهل أو يتسامح في بعض المواقف لئلا يفتر حماس الناس كان يقول: إنكم لا تعرفون الناس كما أعرفهم، وفعلاً كنا نشاهد تحقق بعض التنبؤات التي يخبرنا بها...

فمسيرة الإمام كانت على طريق القرآن وبهدى منه، أمر القرآن بالعمل من أجل الله ووعد خيراً، فبر القرآن بوعده إذ تحققت الثورة، وملأ قلبه من تعاليم القرآن فلم يذهله تهديد أمريكا ولا الاستعمار العالمي بأكمله.. فهذا هو قائدنا الذي يعمل في النهار جاهداً مجاهداً لا ينسى أن يخصص ساعات السحر لمناجاة ربه.. كان الإمام علي (ع) الذي كان يبتسم في ساحة الوغى ويبكي في محراب الصلاة..

أخيراً أرجو من الله تعالى أن يمنح قائدنا طول العمر ويمنحه القوة والصحة لاستمرار المسيرة الخالدة، ويلهمنا الهداية لأن نكون من جنوده الأوفياء والمخلصين ومن حراس دينه العظيم.. دين الإسلام..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المحاضرة الثانية

ماهية الثورة

ألقيت في مسجد الجواد

بتاريخ 15/ 3/ 1979

بسم الله الرحمن الرحيم

قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه: (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ).. يخاطب جلّ ثناؤه المسلمين قائلاً لهم: إن الكفار الذين عملوا على محاربتكم ليل نهار يئسوا اليوم من تحقيق مآربهم وذلك لأنهم هزموا شر هزيمة لا يقدرون بعدها أن يواجهوكم أبداً. فالخطر الذي كان منتظراً من قبلهم أزيل نهائياً.. ولكنه ليس معنى ذلك أن النصر أبدي ولا يخشى عليكم من شيء، بل هناك خطر كبير وهو من الداخل، وهو انه يخاف عليكم.. أيها المسلمون إن الله سبحانه سوف يعاملكم بعدله لا بفضله ورحمته، وهذا يعني أن الظالم يؤخذ بظلمه، كما أن المحسن يثاب على ما عمل، قال الإمام(ع) في إحدى أدعيته: «يا من لا يخاف إلاّ عدله».. ففي النظام الذي يسوده العدل لا يوجد للظلم فيه مكان، فإذا ارتكب الإنسان معصية سيستحق جزاء عمله، ولهذا قيل: إن الخوف من الله معناه ـ بعد التفكير ـ الخوف من الذات، أي محاسبتها حساباً شديداً كي لا يقع الإنسان في أي معصية، وحتى يتجنب الإنسان مخالفة الله تعالى عليه أن ينتهي إذا نهي ويأتمر إذا أمر، وهنا يبرز الصبر ويظهر المؤمن الحقيقي.. قال الرسول الأعظم (ص): «مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي الجهاد الأكبر» وهي تشابه في المعنى الآية المذكورة آنفاً، كذلك قال عزّ من قائل في هذا الصدد :(إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)، فمن هذه الآية نستطيع أن ندرك أساس التاريخ الإسلامي وندرك أيضاً الخطوة الأساسية للمنهج الإسلامي..

عند دراسة التاريخ بدقة وإمعان نجد أن أكثر المسلمين انحرفوا عن المنهاج العام الذي رسمه الرسول الأعظم (ص)، وشقوا صف الوحدة الذي سار عليه النبي(ص) فبرز إلى الساحة انتهازيون تلاعبوا في الألفاظ والمفاهيم حتى استطاعوا أن يغيروا مسار النبي (ص) ويسيروا فيه نحو طريق مصالحهم الشخصية، وكانت عندهم ادعاءات كثيرة واعتداد بالرأي ناتج عن جهل أو تعصب أعمى.. وبما أن القرآن نزل بلسان عربي وأن النبي عربي النسب، وقام الإسلام واشتد وقوي على يد العرب، استطاعوا أن ينشروه في أنحاء العالم بواسطة الفتوحات، فاندثرت الأنظمة الفاسدة الكافرة، وحل الإسلام كسلطة ودين، فمع ملاحظة تلك الأمور لابد من نشوء تيارين:

الأول منهما: يدعو إلى تفضيل العرب على سائر القوميات، وفرض السيادة والاحترام لهم دون غيرهم.. أما التيار الثاني فكان يدعو إلى الإسلام الحقيقي السماوي الذي يقول: «لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى»، و «الناس سواسية كأسنان المشط». ومن هنا ابتدأت الصراعات القومية، ونقدر أن نلاحظ ذلك جلياً في القرون الثلاثة الأولى، إذ برزت الصراعات القومية في أشد صورها وذلك بين العرب والفرس والترك.. فعندما تربع بنو أمية على كرسي السلطان أرجعوا الأمة الإسلامية إلى زمن الجاهلية ففضلوا العرب على الفرس إجمالاً وآثروا قبائل دون أخرى، فاشتدت بذلك الروح القومية ووصلت إلى أوجها.. ولكن ما أن تسلم بنو العباس الحكم من الأمويين حتى قربوا إليهم الفرس، ولكننا نرى أن المنصور لما خشي من عصيان أبي مسلم الخراساني الذي كان والياً على خراسان حتى قتله، ثم إن هارون الرشيد الذي قرب إليه البرامكة، حتى سيطروا تقريباً على جميع أمور الأمة الإسلامية، فما لبث أن أنزل بهم نكبة شديدة أهلكت الكثير منهم.. إلى أن جاء المتوكل العباسي إلى الحكم فاعتمد على الأتراك لتثبيت سلطانه، وكانوا من الجنود الأقوياء الأشداء الأجلاف..

وليس وضعنا اليوم أفضل منه بالأمس.. فنداء القرآن الكريم: (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ... الآية) فالنداء موجه إلينا للفت أنظارنا إلى أن المهمة الأساسية للمسلم أن يتخلص من العدو الداخلي ويقضي عليه، ومن ثم يوجه اهتمامه للعدو الخارجي، وانه عادة لا يخوف، فكما قضى المسلمون الأولون على عدوهم الخارجي ولكنهم بعد وفاة الرسول الأكرم (ص) تغلغل العدو الداخلي في المجتمع فنشأ التعصب ونشأت العنصرية ومني الإسلام بهزائم داخلية كثيرة فرقت أبناءه وجعلتهم أشياعاً وفرقاً مما جعل غير الكفؤ أن يتسلم زمام السلطة.. فهذا درس لنا عظيم يجب علينا نحن الثوار المسلمين أن نتجنب الأخطاء التي وقع فيها المسلمون الأوائل.. فإذا وضعنا الآية الشريفة نصب أعيننا، وإذا أدركنا قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ.. الآية) أدركنا صحيحاً فسوف لن تهزم الثورة...

هناك مثل شائع يقول: إن الحفاظ على الشيء المكتسب أصعب من اكتسابه، لذا نرى أن انتصار الثورة الإسلامية ذو عبء أخف من الحفاظ على مكتسباتها.. إني ألاحظ بعض بوادر التفرقة بدأت تتسرب إلى الثورة، ولو أن هذا شيئاً مرتقباً، لكن

علينا علاجه قبل أن يستفحل، والعلاج شرط فيه تشخيص الداء.. فمن المحتم علينا أن ندرس الثورة كظاهرة اجتماعية، ونتعرف على جميع جوانبها، ونحلل ايجابياتها وسلبياتها بدقة وإخلاص..

سألقي نظرة سريعة على أكثر الثورات في العالم، وبعدها أتطرق إلى ثورتنا بوجه خاص.. فلنتعرف على كلمة الثورة ماذا تعني؟ الثورة تعني: تمرد وعصيان شعب ما أو مجموعة منه على النظام السائد في المنطقة لأجل إيجاد حالة جديدة فيها تحت إشراف نظام جديد لتحسين الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية.. فأساس الثورة يستند على أمرين: أولهما: الخروج من الوضع الموجود وعدم الرضوخ للحكم القائم، الثاني: وضع استراتيدجية للصيغة البديلة مع رفع شعار ينادي بالتغيير..

من ناحية أخرى تتأطر جميع الثورات بشكل عام بنظرتين:

الأولى: تعتقد بأن الثورات كلها ذات ماهية واحدة وإن اختلفت أشكالها ومظاهرها أو وصفت بأنها سياسية أو دينية أو علمية كالثورة الإسلامية في صدر الإسلام والثورة الفرنسية وثورة اكتوبر والثورة الثقافية في الصين، فكل هذه الثورات لها دافع واحد، هو اقتصادي ومادي ليس إلا، فإنها ثورات المستضعفين في الأرض على الإقطاعيين والبرجوازيين.. حتى أصبح المستضعفون هم المادة الأولى لقيام الثورات في عصرنا الحاضر، حتى لو أن الثوار تكلموا بالمفاهيم الإسلامية.

النظرية الثانية: تعتقد باختلاف ما يعتقده الماديين، فلا تقتصر الثورة عندهم بالاقتصاد والمادة، حتى ولو أن عنصر التفرقة الطبقية من حيث الغنى والفقر له أثره البالغ في الثورة..

قال الإمام علي (ع) في خطبته عند توليه الخلافة: «لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم».. فالإمام (ع) تحدث عن وجود شقين في المجتمع: ظالم ومظلوم، وعن صفتين: الشبع والجوع.. فأصحاب النظرية الثانية لا يحصرون الثورة بالعامل الاقتصادي فقط، لأنها قد تكون بدافع إنساني شامل، إذ أن الجوع غير مختص بالإنسان، فإن الحيوان أيضاً يثور عندما يجوع.. والثورة ذات الأهداف الإنسانية تطالب بالحرية، ولها ماهية سياسية مميزة، فمن الممكن أن يوجد نظام ذو عدالة اجتماعية، ولكن فيه كبت للحريات واختناق سياسي، ولأجل ذلك تقوم ثورة عليه مطالبة بالحرية والانفتاح السياسي..

وقد يكون للثورة منشأ عقائدي، فعندما يحس العقائديون إنهم يتعرضون للخطر من قبل الحكام يثورون دفاعاً عن عقيدتهم..

فيمكننا تحديد العوامل التي تؤدي إلى الثورات بما يلي: إما أن يكون العامل اقتصاديا ويسعى الثوار إلى إلغاء الطبقات في المجتمع..

وإما أن يكون سياسياً اجتماعيا.. فغاية الثورة تكون الحرية والوصول إلى الإنسانية المتكاملة..

روي عن ابن سينا حين كان يتولى وزارة مدينة همدان أنه مر في طريقه بكناس ينظف الشارع وهو يتغنى بأبيات شعر مؤداها: يا نفسي إنك ذو أهمية وتستطيعين تحمل العالم بكل سعة صدر.. فضحك ابن سينا قائلاً له: لم أر إنسانا يكرم نفسه كما تفعل، فنظر الرجل إليه وعرف من لباسه أنه ذو مقام رفيع وقال له: إن عملي مع حقارته أشرف من مهنتك أيها السيد، وذلك لأن عليك أن تركع يومياً أمام الملك، أما أنا فلست مضطراً أن أركع يومياً أمام أي إنسان بالغ ما بلغ شأنه وذلك لأنني حر.. فخجل ابن سينا وترك الرجل..

تدلنا هذه الرواية على أن الكرامة الإنسانية والحرية الفردية أغلى بكثير من المقامات الرفيعة والمظاهر الاجتماعية البالية وكل الإغراءات المادية.. ومن هنا نجد السبب الأساسي للثورة الفرنسية التي دعا إليها الحكماء أمثال (روسو) فإنهم حثوا الناس للدفاع عن حريتهم وكرامتهم، ونجحوا بالثورة..

العامل الثالث للثورات هو الدفاع عن العقيدة، ونستفيد من قوله تعالى في سورة آل عمران الآية الثالثة عشر: (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ) فهذه الآية الشريفة تتكلم عن حرب المسلمين مع الكفار في غزوة

بدر، فالمسلمون حربهم كانت حرب عقيدة، للدفاع والذود عنها، بينما كانت حرب الكفار لحماية مصالحهم والحفاظ على مراكزهم الاجتماعية والعشائرية ليس إلا...

وهنا سؤال يطرح نفسه: ما هو العامل الأساسي الذي بنيت عليه الثورة؟ هل هي طبقية أو ليبرالية؟ أم هي ذات عقيدة إسلامية؟

فمن يعتقد بأن كل الثورات ذات طابع مادي يقول بأن ثورتنا طبقية اقتصادية، إذ هي ثورة المحروم على الحارم، والفقير البائس على الغني المرفّه.. وهناك فئة من الناس يؤمنون بالفكر المادي ويريدون صبغ أنفسهم بصبغة إسلامية، ويستشهدون بقوله تعالى : (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) (القصص: 5-6).. فتريد هذه الفئة القول بأن القرآن أيضاً يقول بأن الثورة أساسها المستضعف. ولكن الباحث المدقق في تعاليم القرآن يرى أن الإسلام يعتبر أن النهضة التي تأخذ بالإسلام فكراً وعملاً هي في صالح المستضعفين، ولا يشترط فيها أن تقوم على أكتافهم، وهذا يخالف ما يعتقده الماديون.. فعندما قام الأنبياء بثورات على مجتمعاتهم وناهضوا الأنظمة السائدة آنذاك، كانت ثوراتهم لصالح المستضعفين، ولكن ليس بالضرورة أن يكون الأنبياء أنفسهم مستضعفين، كذلك إن الماديين لا يؤمنون بأن البناء الذاتي لكل إنسان له علاقة مباشرة بالثورة، بل يعتقدون أن التكوين الاجتماعي هو الذي يحدد وقوع الثورة، أما الإسلام فيعتمد على إنسانية الإنسان، ولذا نراه يخاطب كل طبقات المجتمع من محرومين وحارمين. فقراء ومرفّهين.. فالإسلام يعتقد بأن في ذات كل مستكبر تختفي إنسانية ولكنها مربوطة بسلاسل من حديد، وبالإمكان حل هذه القيود.. ففرعون لم يحاصر بني إسرائيل بالسلاسل فقط، بل إنه حاصر نفسه وذاته الإنسانية أيضاً وحصاره لنفسه كان بادعائه الألوهية واستكباره على الخلائق، لذلك توجه إليه النبي موسى (ع) لتحريره من الطاغوت ومن النزعة الفرعونية التي تملكت في كل أعضائه، فهي أشبه بالمرض.. ولكن الثورة لم تنحصر في تخليص ذاته الإنسانية فحسب بل لها مفهومها العميق وأبعادها الاجتماعية من جميع جوانبها، وعندما فشل النبي موسى (ع) من إصلاح فرعون قام ضده بثورته المعروفة، ومات فرعون شر موتة.. ولقد كان مع موسى جماعة من الأقباط ـ المالكون آنذاك ـ ودافعوا عن الأسباط ـ وهم الفئة المستضعفة آنذاك ـ ويشير القرآن إلى ذلك بقوله: (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ).. كذلك نرى إن زوجة فرعون استيقظ ضميرها عندما سمعت القول الحق من موسى (ع) واتبعت دينه ومذهبه ووقفت ضد زوجها المستكبر.. ومع النبي محمد (ص) نلاحظ أن الفقراء والمساكين كانوا يؤيدونه أكثر من غيرهم.. وفي يومنا الحاضر ترى أن الذين انتعشوا وأيدوا الثورة الإسلامية في إيران أكثرهم من المستضعفين، لأن الثورة كانت لصالحهم وهدفها العدالة الاجتماعية..

إن ثورة إيران باعتراف أكثر الناس لها خصوصية معينة وذات طابع خاص، بمعنى أننا لا نجد لها نظير بالعالم.. وفي نظرنا أنها كانت إسلامية، ولابد من إلقاء نظرة على كون الثورة الإسلامية.. يرى بعضهم بأن إسلامية الثورة تعني المعنوية الموجودة في جميع الأديان.. ويرى البعض الآخر بأن هذه الصفة تعني أن النظام الجديد سيعطي الحرية للدين ويسمح بإقامة المناسك الدينية بكل حرية.. أما بالنسبة للمفهوم الأول فيجب علينا أن نبين أن الحقائق الموجودة في ثورتنا لها مفهوم أعمق بكثير من هذا الأمر.. فالثورة الإسلامية في صدر الإسلام إلى جانب مفهومها الإسلامي كانت سياسية واقتصادية، بمعنى أنها تمنح الحريات للشعب وتقيم العدل وتزيل الفوارق الطبقية بين أفراد المجتمع.. والسر في نجاح ثورتنا أنه كان للعامل المعنوي والمادي والسياسي أثر فعال فيها.. فالنضال لأجل القضاء على الطبقية يعتبر من التعاليم الإسلامية ويمتزج بمعنوية عميقة يعطيها زخماً أكبر.. كما أن روح التطلع نحو الحرية من صميم الإسلام..

وخير مثال على العدل والمساواة والحرية في الدولة الإسلامية هو ما نقله جورج جرداق في كتابه فضائل الإمام علي (ع).. وإليك القصة: عندما كان عمرو بن العاص والياً على مصر في خلافة عمر بن الخطاب، أتى رجل وابنه إلى عمرو بن العاص يشتكي من ضربة ألحقها به ابن عمرو فما كان من الوالي إلاّ أن طردهما معاً ولم يسمح لهما.. فذهبا إلى عمر بن الخطاب وأسمعاه قصتهما فطلب عمر من عمرو المجيء مع ابنه، وأمر الخليفة ابن الرجل أن يضرب ابن عمرو كما ضربه، ثُمّ التفت لعمرو بن العاص قائلاً له: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»..

ولنرى مدى تأثير الثورة الفرنسية بالقضاء الإسلامي وأحكامه، إذ أن أحد الأصول الأساسية التي بنت الثورة الفرنسية عليه يقول: «كل من يخلق من بطن أم حرة فهو حر».. ويمكنك الرجوع إلى الرسالة التي بعث بها الإمام (ع) إلى مالك الأشتر عندما ولاه مصراً، كذلك قول سيد الشهداء الإمام الحسين (ع): «ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً»..

فالذي أريد قوله: أن الليبراليين لم يأتوا بشيء جديد بل كل تعاليمهم موجودة في الإسلام.. وتولى نشر هذه التعاليم والقيم الإنسانية الموجودة في العقيدة الإسلامية علماء أكابر في جميع المدن والقرى، لذا نجد شمول ثورتنا ومشاركة الغني والفقير والتاجر والفلاح والمثقف والأمي والموظف والطالب، وذلك لأنها تحمل صفة إسلامية.. كما أن التلاحم والاتفاق الذي كان بين أفراد المجتمع جعل منها قوة هائلة لا تخشى من أي قوة أجنبية غربية، واستطاعت أن تحافظ على خطها ومبدئها المستقل.. وفي رأي علماء الاجتماع أن المجتمع روح كما للكائن الحي، وروح المجتمع هو الثقافة الخاصة بأبنائه، فإذا استطاعت النهضة أن تضع إصبعها على هذه الروح تحرك المجتمع كتلة واحدة.. منذ مئة عام تقريباً وهناك صراع فكري بين الثقافتين الغربية والشرقية، فالشرقيون بشكل عام والمسلون منهم خاصة يحسون بالحقارة أمام الثقافة الغربية.. في كتابي «النهضات الإسلامية» ذكرت أن السيد أحمد خان كان أحد القادة في الثورة الإسلامية في الهند ضد الانكليز.. ولكنه عندما دعي إلى بريطانيا ورأى هناك الحضارة والإزدهار والتمدن الرفيع رجع خاسراً نفسه لدرجة أنه قال: نحن لا نملك أي وسيلة غير العيش تحت الحكم البريطاني.. وسار على خطاه «تقي زاده» في إيران إذ قال: لو أردنا السعادة يجب علينا أن نصبح من الرأس إلى أخمص القدمين كالافرنجة.. وفي مقابل ذلك نجد أن السيد جمال الدين الأسد آبادي عندما ذهب إلى الغرب فكر ملياً وقال: يجب أن نستيقظ ونعمل جاهدين لنتوصل إلى هكذا حضارة، وفعلاً نشر جريدة أسماها «العروة الوثقى» في باريس، وذكر قصة خرافية في أحد الأعداد بها بأبعادها السياسية وهي:

«كان من المتعارف عليه سابقاً أن الغريب في المدينة ينام في المسجد لعدم وجود فنادق آنذاك، فكان في إحدى المناطق مسجد، كل من بات فيه تخرج جنازته صباحاً، فصادف أن أتى رجل غريب شجاع، وأقسم على المبيت في المسجد ولم يسمع نصيحة الأهالي، بل قال لهم إني سئمت الحياة وأريد أن أرى الموت، وفي منتصف الليل سمع أصواتاً وضجيجاً مرتفعاً كثيراً، لا يبقى كائن حي إلاّ ويموت عند سماعه، ولكنه جمع قواه وصرخ على المجهول صرخة مدوية : ادخل أنا لا أخاف الموت، عند ذلك سمع صوتاً مهيباً آخر وهبط حائط في المسجد كاشفاً كنوزاً ثمينة».. ثمّ قال السيد: إن بريطانيا كالمعبد الكبير الذي يلجأ إليه كل ضائع في ظلام عالم السياسة وعندها سينهزم أمام الأوهام المخيفة.. ولكن لابد من أن يأتي رجل ذات يوم قد سئم من الحياة، وصاحب فكر نافذ وصبر وتحمل للمسؤولية ويصرخ تلك الصرخة المدوية فيتهدم الحائط وتظهر الغرائب والخيرات.. وكان السيد جمال الدين نفسه ذلك الرجل الذي سئم الحياة واستطاع أن يقف على رجليه صارخاً بوجه بريطانيا العظمى وفتح أعين الناس على الحقائق معتمداً على تاريخ صدر الإسلام والثقافة الإسلامية الواسعة، فإنه أول من بذر بذرة النهضة واستطاعت هذه البذرة أن تكون المنار الذي سارت عليه الحركات الإسلامية في ما بعد.. فإذا اتفقنا أن هوية ثورتنا إسلامية فالحفاظ على مكتسبات الثورة مرتبط بالحفاظ على تلك الهوية..

فلنتعرف الآن على هوية هذه الثورة القائمة على أساس ديني، وتؤمن بالله الأحد.. فإحدى الطرق لمعرفة هويتها يكمن في معرفة القيادة التي أشرفت على الثوار ورسمت خط الثورة.. فأما مراكز القيادة فلم تكن خاضعة لنظام ترشيحي، وليس من مهام القائد الأعلى أن يعين الخطوط الأساسية للثورة وترى قسماً من الذين عملوا جاهدين لاحتلال مركز مرموق في القيادة باءت محاولاتهم بالفشل.. وترأس الكرسي الأكبر للقيادة المرشد الديني الأعلى الإمام الخميني تلقائياً، وكانت توصياته تؤخذ بعين الاعتبار، وأوامره منفذة، وأحكامه سارية المفعول مباشرة.. فما هو السبب الذي جعل هذا الرجل دون غيره في هذا المركز المهم والحساس؟ هل كان مجرد صدفة؟ أم أن صدق اللهجة ووقوفه دائما إلى جانب الحق كان له الأثر في ذلك؟ وهل الرجال الصادقون قله في عصرنا؟ أم أن شجاعة الإمام ورؤيته الواضحة والدقيقة للأمور دفعاه إلى تبوأ مركز القيادة الأولى؟ أم أنه جمع تلك الصفات التي يجب أن تتوفر في القائد فأصبح لتميزه بهذه الخصائص القائد الأوحد للثورة الإسلامية؟..

فالجواب على هذا التساؤل يعود إلى فلسفة تاريخ الثورات التي تتردد بين أمرين هما: هل التاريخ يصنع الشخصيات؟ أم أن الشخصيات أنفسها هي التي تصنع التاريخ؟ نقول: إن هناك أثراً متقابلاً بين هذين العاملين، إذ أن النهضة والحدث التاريخي يجب أن يتميزاً بخصائص معينة، والقائد الذي يريد أن يقود حقبة معينة من التاريخ يجب أن تتوفر فيه مزايا وخصائص، والإمام الخميني كان كذلك.. وإلى جانب هذا كله معرفة شاملة وصلة وثيقة بأفكار ومتطلبات الشعب الإيراني، وكان متفهما لما يريدونه.. وهناك عامل أساسي لنجاح الثورة والتفاف الجماهير حول الإمام الخميني وهو تمسك الشعب بالمبادئ الإسلامية وحبهم لرسول الله (ص) ولأهل بيته الميامين (ع).. وكان الإمام يتكلم مع الجماهير بكل صدق وبما يعتقده لذلك كان كلامه نافذاً، وقديماً قيل: «ما يخرج من القلب يدخل إلى القلب، وما يخرج من اللسان لا يتجاوز الآذان».. وبما أنه مسلم بكل معنى الكلمة ومتفهم وواع للرسالة الإسلامية التي من تعاليمها محاربة الظلم بشتى أنواعه وعدم الرضوخ للجائر مهما كانت صفته وترفض الذل للمسلم والركوع لغير خالقه الفرد الصمد.. كما أنه نادى بعدم فصل السياسة عن الدين، هذا الفصل الذي جهد الاستعمار للتوصل إليه، ومن محاولات الاستعمار طرحه لمسألة العلمانية.. وظهرت آثار محاولة فصل الدين عن

السياسة في الدول العربية وخاصة في مصر، فقام جماعة نادوا بالقومية العربية، وقال السادات جهراً في محاولة خاسرة لتبرير صلحه مع العدو الصهيوني الذي يرفضه الدين، إن الدين للمسجد فقط..

أما في إيران فالفقهاء أفتوا بعدم هذا الفصل وبذلك أحبطوا مؤامرات الاستعمار، وضمنوا التفاف الجماهير حول كلمة الحق.. كذلك يبين القائد الإمام الخميني أن الحرية هي من صميم الإسلام وعليها ترتكز أكثر مبادئه، وبذلك فشلت مخططات الاستعمار لاستعمال هذه الكلمة الرنانة لمحاربة الإسلام بها، إذ أن الاستعمار يوهم الناس بأن الدين مقيد للحريات، وبكلمة من الإمام بطل تأثير هذا الزعم، إذ أن الإسلام أوّل من طرح هذا الشعار وعمل به دون غيره..

ومن الأمور التي طالبت بها الثورة هو الإرجاع إلى التاريخ الهجري بعد أن أبدله الشاه إلى التاريخ الشاهنشاهي، وهذا المطلب دينياً ولا علاقة له بالسياسة أو الاقتصاد..

ومن خلال هذا الشرح والوقوف على المطالب التي طالبت بها القيادة، كالحرية والاستقلال والعدل والمساواة بمعايير إسلامية، نستنتج من ذلك أن ماهيتها ماهية الثورة الإسلامية.

فالإسلام يربي المؤمنين به على العدل وقول الحق، لذلك تجدهم ثائرين على الظلم والجور.. أما المسيحية فانتقدت الإسلام منذ غابر الأزمان لأنها تعتمد على اللين في مواجهة الصعاب والمظالم، ويقول المسيحيون: «من يضربك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر»، بينما الإسلام يؤمن بالجهاد، ويقول المسلمون: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام حاكم جائر». ومن الروح الثورية الموجودة في الإسلام سؤال يطرح نفسه وهو: هل يجب أن يكون في المستقبل ثورة إسلامية أو إسلام ثوري؟

إن الثورة الإسلامية تعني: الطريق ذو أهداف ومقاييس إسلامية، وتعمل على إرساء قواعد الإسلام.. فالنضال ليس سوى وسيلة لتحقيق الأهداف الإسلامية الراقية..

أما إذا اعتبرنا أن النضال والثورة هما الغاية ـ كما يعتقد البعض ـ وما الإسلام إلاّ وسيلة، فسيختلف الأمر تماماً، وسنكون في مفرق طرق عند طرح المعاني الإسلامية، والتحدث عن الإنسان والتوحيد والتاريخ والمجتمع وفهم الآيات القرآنية وتفسيرها كما يرضي الله..

بعد إيضاح إسلامية ماهية الثورة نقول أن دوامها والحفاظ على مكتسباتها موقوف على السير في نهج عادل وطريق مستقيم، والسعي إلى إزالة الفوارق الطبقية والتفرقة الاجتماعية. والعمل بجد وإخلاص في بناء مجتمع موحد يؤمن بالمفهوم الإسلامي.. أما إذا تسامح القادة في العدالة الاجتماعية فتعتبر الثورة فاشلة.. ويجب أن يسود التفاهم بين أبناء هذا الشعب كافة وتكون العلاقات بينهم أخوية إسلامية، أساسها الرضى والود بين المجتمع.. فتأمين العدالة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي يقوم على الشعب نفسه وعليه مهمة انجازها.. أما القائد فيجب أن يضع نصب عينيه قول الإمام علي (ع): «ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، فلعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى وأكباد حرى..» (نهج البلاغة، الرسالة: 45).. فبهذا الأسلوب أسلوب التضحية والفداء والتفكير بالآخرين على بعدهم يطبق الإسلام الحقيقي، فالعدالة لا تطبق بالعنف.. ومن المهم أن يلاحظ المسلم أن عليه احترام حرية الآخرين..

إن الجمهورية الإسلامية لا ترسي قواعدها على الاختناق السياسي والفكري.. أما إذا أرادت ذلك فمعناه الهزيمة ستكون مصيرها الحتمي.. فكل فرد من أفراد المجتمع يتمتع بحرية الرأي والتفكير والتعبير عما يجول بخاطره.. والأحداث التاريخية أثبتت أن الإسلام لا ينمو إلاّ في المجتمع الذي يتمتع بحرية تامة، ولكن الحرية حدود تنتهي عند بدء حرية الآخرين، فعلينا أن نمنع الخداع والتلاعب بالألفاظ.

وأخيراً ـ زبدة المحاضرة ـ هي أن ازدهار الثورة مستقبلنا لا يكون إلاّ في العدالة والحرية والإستقلال الاقتصادي والسياسي والفكري والعقائدي.. فالاستقلال العقائدي نحصل عليه بمفهومنا فهماً دقيقاً وصحيحاً للإسلام ثُمّ عرضه على العالم، فعلينا أن لا نجعل للخجل طريقاً ينفذ منه إلينا عند طرح ديننا القويم على البشرية جمعاء.. أما إذا أردنا خلط الأوراق فنأخذ شيئاً من الماركسية وشيئاً من الوجودية وشيئاً من الإسلام فسوف تضيع القيم الحقيقية للإسلام والقرآن، فعلينا إذن الحذر من الأفكار الدخيلة..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أسئلة حول المحاضرة

السؤال الأول: ذكرتم أن للثورة ماهية إسلامية، مع أن هناك أقليات سياسية غير إسلامية كان لهم دور وفعالية في هذه الثورة، فهل تنكرون دورهم في أنهم يلتقون مع الإسلام في خطوط معينة؟

الجواب: ليس قولنا بإسلامية الثورة معناه أن جميع الثوار هم مسلمون، بل أن الخط العريض والأساسي للثورة كان إسلامياً، أو بعبارة أخرى أن الروحية الإسلامية كانت هي المخيمة.. نلاحظ ـ مثلاً ـ في صدر الإسلام لم تكن الثورة آنذاك موقوفة على المسلمين، فكانت بعض الأقليات الدينية قد شاركت فيها.. ففي إيران أيام كان الدين الزرادشتي سائداً قبل الإسلام، كان يعيش في إيران يهوداً ومسيحيين ومانويين وكانوا أقليات.. فلما ظهر الإسلام وامتدت دعوته لتشمل إيران ووقعت عدة حروب بين المسلمين والزرادشتيين وجدنا أن الأقليات ساعدت المسلمين لأنهم كانوا يعيشون في ضيق اجتماعي واقتصادي، وعلموا أن من مبادئ الإسلام العدالة والحرية.. ونفس الوضع تراه في مصر، فاليهود ساعدوا المسلمين لأن المسيحيين كانوا يظلمونهم ظلماً شديداً.. فهل تسمى النهضة آنذاك إسلامية ـ يهودية؟

فالأقليات التي ساعدت في الثورة الإسلامية في إيران هم ماديون.. ومما لاشك فيه أنهم قدموا ضحايا كثيرة وعذبوا واضطروا من قبل جلاوزة الشاه، وكانوا مخلصين في عملهم لا أريد أن أحصي قتلاهم، ولكن أريد أن أنبه إلى مدى التأثير الفعلي لهم على الشعب، كلكم تعلمون أن عند استشهاد أي شاب مسلم كنا نجد الشعب يهب هبة واحدة مملوءاً بروح الفداء والتضحية، ويزيدهم التحاماً ببعض متحدين النظام الجائر القاتل.. أما عند مقتل شيوعي من قبل النظام البائد كان يسبب الحزن والخوف في قلوب الناس لئلا يتسلم الحكم الشيوعيون.. هناك سؤال كان مطروحاً سابقاً وهو: لماذا كان يصر النظام الشاهنشاهي في نعت المسلمين بالماركسية؟ فلو كانت هذه الصفة جيدة من شأنها أن تدفع الثورة إلى الإمام لما فعل النظام ذلك، بل رأى أن هذه الصفة تمنع الثورة من البقاء وتحقيق أهدافها.. كما أن التاريخ يدل على أن المجموعات الماركسية كانت لها تأثيرات سلبية بشكل عام في نضال الشعب. إن إصرار الإمبرياليين في وصم النهضة في إيران بأنها شيوعية نتيجة إدراكهم أن هذه التهمة كافية لزرع بذور التفرقة بين أفراد المجتمع..

لو سلمنا أن لهذه الأقليات دوراً ايجابياً في الثورة، فهنا سؤال يطرح نفسه ألا وهو: ما الفائدة من التفكير بتقسيم الغنائم؟ لو أن الثورة انتهت بسقوط النظام الشاهنشاهي لكان وقت قطف الثمار قد حان: ولكن لم نقطع بعد المرحلة الأولى من الثورة.. ولا يمكننا في المرحلة الثانية تقسيم الدولة على من اشترك في الثورة لأن ذلك يفرض أن تضع كل جماعة أيديولوجياتها للتنفيذ وهذا مما يسبب صراعاً بدون جدوى، بل يعمل على التقهقر، مع العلم أننا بأشد الحاجة إلى الكانف ووجود الصف الواحد داخل الحكم وخارجه، وذلك لأجل بناء أمة أفضل...

السؤال الثاني: هل يعتبر القرآن أن المستضعفين هم قوام الثورات؟

الجواب: لم يحصر القرآن الأرضية الاجتماعية للثورات في الطبقة المستضعفة فقط خلافاً لما أراد بعضهم أن يصور المسألة بهذا المفهوم.. وهناك مفهوم أعم وأشمل للمستضعفين يعم الاستضعاف المادي والمعنوي.. لنأخذ فرعون مثلاً على ذلك، فهو متكبر وقد جعل نفسه إلها، ومع ذلك يحمل في طبقات ذاته إنسانا خاضعاً للاستضعاف، فتتنازعه شخصيتان: فطرية وهي إنسانية محكوم على أمرها، واكتسابية وهي فرعونية..

أما من قال بأن أساس الثورة هو الاستضعاف اعتمد على قوله تعالى جل ثناؤه: (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (القصص: 5)

فنحن لا نقبل بتفسير هذه الآية على أساس شمولها لجميع المسائل الاجتماعية، وذلك لوجود آيات قرآنية أخرى تعتبر الإيمان هو المعيار لانتصار الثورة، ومنها قوله تعالى: (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ) (النور: 55).

وقوله: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ).

وقوله: (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ).

فكما أن الله منَّ على المستضعفين بإرسال رسول منهم يقودهم إلى النصر وإلى تحطيم أسطورة فرعون، كذلك لقد وعد الله الذين آمنوا أن يحقق لهم انتصارات عظيمة.. فنلاحظ أن الخطأ الذي وقع فيه من يعتقد أن الاستضعاف هو أساس القيام على الظلم والجور، وهو أساس النصر، كان خطأهم أنهم فصلوا الآيات بعضها عن البعض مع أنها مترابطة في المعنى ومكملة أحدها للأخرى..

وبالنهاية أقول أن أساس الثورة الإسلامية هو حرب العقائد ونصر الأيديولوجيات، إن نصر الإيمان هو الأصل، والمؤشرات الأخرى فرعية.. وبنفس الوقت يرى القرآن أن المستضعفين هم أقرب إلى الإيمان من المتكبرين..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المحاضرة الثالثة

العدالة الاجتماعية

ألقيت في مسجد فرشته

في شهر نيسان 1979

إن ثورتنا الإسلامية ترتكز على أركان ثلاث وهي: العدالة الاجتماعية والاستقلال والحرية .. والمعنوية..

لنبدأ أوّلاً بالحديث حول العدالة الاجتماعية: كلنا يعلم بالثورة الإسلامية التي حدثت في النصف الأوّل من القرن الهجري على الخليفة عثمان بن عفان والتي انتهت بمقتله على أيدي الثوار.. ومن أسباب الثورة ذكر لنا التاريخ أن عثمان كان يؤثر أفراد عشيرته على غيرهم من المسلمين، فالأفضلية عنده في تولي الأمور السياسية والاجتماعية كانت لمن يتصل به من حسب أو نسب أكثر ممن هو أهل لأن يتولى زمام الأمور.. فسيرته كانت مناقضة للأصول الإسلامية، (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)، كذلك فقد خالف ما سار عليه الشيخان وما تعهد به عند بيعته في أن يسير على سنة الله سنة الشيخين وبهذا العهد تربع على كرسي الخلافة..

ولقد أشار الإمام علي (ع) لهذا الوضع المزري الذي وصلت إليه الدولة الإسلامية آنذاك، بما معناه: إن قبولي للخلافة سببه وجود فئتين في المجتمع: أحداها متخمة والأخرى لا عهد لها بالشبع.. إذ أن التاريخ ذكر لنا أن عثمان الذي كان من عائلة ذات مقام رفيع في الجاهلية ولم يكن لهم أثر ذا فعالية في صدر الإسلام، فأعطاهم المراكز العالية بسبب قرابتهم وليس لأنهم أهلاً لها.. فكرس بذلك النظام الإقطاعي وفتح بيت مال المسلمين لعشيرته وجماعته المقربين..

بظهور طبقة ثرية من المجتمع على حساب آلاف المسلمين، وبانتشار الظلم والجور من قبل الولاة، رفع الناس في الكوفة ومصر والحجاز شكواهم إلى الخليفة الثالث ولكنه لم يسمع لهم، فحملوا السلاح بوجهه، وصدهم الإمام علي (ع) الذي كان صلة الوصل بين الثائرين وبين الخليفة، وكان يهدئ الثوار لئلا تعم الفتنة ويستغلها المنافقون، وكان ينصح عثمان بأن يترك الذين حوله - وكلهم انتهازيون - يؤثرون مصالحهم على مصالح الأمة الإسلامية.. ولكن عثمان لم يأبه لنصائح الإمام (ع)، وأذعن لأقوال مروان بن الحكم الرجل الثاني في الدولة الذي كان مبعداً عن المدينة هو وأبوه منذ زمن الرسول (ص) لأنهما من المنافقين ولم يقدرا أن يرجعا إلى المدينة إلاّ في عهد عثمان فكان مروان مستشاره والآمر المنفذ لأقواله.

وعلى أثر هذا العناد من الخليفة والتشبث بأصحابه الانتهازيين زاد الثوار من نقمتهم وغضبوا فوثبوا وثبة واحدة على دار الخلافة وقتلوا الخليفة، وذهبوا إلى دار الإمام علي (ع) لمبايعته متصورين أن الأزمة انتهت بانتهاء رأس الهرم آملين أن يقبل الإمام البيعة وبذلك تعود الحياة إلى ما كانت عليه أيام الرسول الأعظم (ص)...

ولكنهم فوجئوا برفض الإمام للخلافة، حتى مضت أيام والناس حيارى من إصرار الإمام على عدم قبولها، مع أن الخلافة أتته طائعة ولم يسع لها، ولكن الإمام أخيراً بعد ما رأى من الناس إجماع كلمتهم، والفوضى التي حلت بالبلاد تسلم زمام الأمور وقبل البيعة، وأفهم الناس بأن إصلاح الدولة وتثبيت العدالة الاجتماعية وإعطاء كل ذي حق حقه لا يكون بتغيير شخص، بل يريد تغييراً جذرياً.. كما أن السير على الصراط المستقيم وعلى سنة رسول الله يحتاج إلى حزم وشدة وعدم مراعاة صداقة ولا قرابة، بل الحق يُعلى ولا يعلى عليه فعندما ابتدأ الإمام (ع) بتطهير الدولة الإسلامية من ولاتها وقوادها الجائرين الظالمين أمثال معاوية بن أبي سفيان وأمثاله، نصحه بعض الناس بالتريث واللين فأجابهم كيف يكون ذلك وهم ظالمون وأعمالهم منافية للقرآن والسنة، وأشار لهم إلى مسألة دقيقة بقوله: «إن في العدل سعة»..

وكان الإمام (ع) صريحا لا يهاب أحداً، ويعتقد بأن إخفاء الحقائق عن الناس هو خيانة للشعب.. ولكن الانتهازيين والمستفيدين أيام عثمان لم يعجبهم إظهار الحق والسير على الصراط المستقيم كما أمر القرآن، وانتهاج منهج رسول الله، العالية في الدولة.. لذا بدأت المعارضة من الزبير وطلحة وعائشة فجهزوا جيشاً وكانت معركة الجمل الفاصلة بينهم بانتصار الإمام علي (ع).. وتحرك معاوية من الشام الذي خسر مركزه أيضاً لأن الإمام أقاله من منصبه، وكانت معركة صفين.. وانبثقت منها حروب الخوارج.. وهذه الفتن والحروب كان سببها أن الناس تعودت على الخروج عن الإسلام فرجعت القهقرى إلى الحياة الجاهلية، كما أن بعضهم استفاد من تلك الأوضاع قبل خلافة الإمام (ع) فجمعوا مبالغ طائلة واغتنموا غنائم كبيرة بسبب الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل فازدادت مواردهم المالية على أساس من الظلم والجور.. وهذا ما منعه الإمام علي (ع) ونصب الولاة المؤمنين الذين يخافون الله ويسيرون على هدى رسوله الكريم.. وبهذا علّم البشرية السير على العدالة الاجتماعية وأن لا يخافوا إلاّ من الله العلي العظيم..

أما بالنسبة لثورتنا فإن العدالة تشكل إحدى أهم الضمانات لاستمرارها مستقبلياً بنجاح.. وهنا سؤال يطرح نفسه وهو: ما هو التفسير الإسلامي للعدالة الاجتماعية؟ بعضهم يعتقد أن العدالة هي التساوي بين الأفراد في كل شيء، وهؤلاء لا يعتبرون الفرد بل المجتمع، فهو الذي له الأهمية الكبرى.. وهناك النظام الرأسمالي الذي يعطي أهمية عظمى للفرد بدون تحديد لطموحاته ورغباته.. وهناك الإسلام الذي يعتني بحرية الفرد ضمن حدود معينة لا يتجاوزها لتؤثر على حرية الفرد الآخر أو أن تضر بالمصلحة العامة.. فالإسلام يأخذ بعين الاعتبار الفرد والمجتمع معاً، علاوة على التضحية الإنسانية والإخلاص الديني الذي يشعر بالأخوة بين المسلمين.

فالإمام علي (ع) أعطانا أمثلة كثيرة عن العدالة وعن السلوك الذي يجب على المسئول إتباعه وكيفية الحفاظ على بيت مال المسلمين، بدون أن يراعي قرابة أو غيرها، فيحدثنا التاريخ أن ابنة الإمام (ع) أعجبت يوماً بعقد تزين به عنقها فاستأذنت من المسئول عن بيت المال بأن تستعيره ليلة العيد فأذن لها، فلما رآها الإمام غضب كثيراً ووبخها على أخذ شيء من بيت المال، ثُمّ قالت له أنها لن تتصرف إلاّ بإذن من المسئول، فذهب إليه الإمام فلم ينكر بل قال: أنا أذنت لها فقال: لو لا ذلك لقطعت يدها..

فهنا يضرب لنا الإمام مثلا، وما أروعه، إذ أنه في حق من حقوق الناس لا يتساهل أبداً حتى لو كان المعني أحد أفراد بيته بل ينفذ حكم الله بدون تردد أو وجل.

فهذا مقياس عن أوليائنا، وعلى الثورة أن تسير على نفس الطريق.

المحاضرة الرابعة

الاستقلال والحرية

ألقيت في مسجد فرشته

في شهر نيسان 1979

هناك حالات عدة يكون فيها الإنسان غير مستقل أو مسلوب الحرية.. منها عندما يكون الإنسان طفلاً، فهو تحت سيطرة أبويه يوجهانه كيفما أرادا.. والعبيد أيضاً حياتهم بأيدي أسيادهم فلا يملكون اتخاذ القرارات حتى في أخص خصوصياتهم وهناك الفلاح في ظل الحكم الإقطاعي فللأخير سيطرة تامة استغلالية كبيرة للفلاح المسكين الذي لا حول له ولا قوة.

في عصرنا الحالي نجد أن النوعين الأخيرين يكادا أن يكونا مفقودين لا وجود لهما على أرض الواقع، ولكن ظهرت المسألة في إطار آخر، إذ ابتدأ الاستعمار الدولي بثوب جديد ووجه ضاحك، فترى أن هناك دول بأكملها تحت سيطرة دولة كبرى تملك بأيديها اقتصاد تلك الدول وبالتالي لها سيطرتها السياسية عليها، فهي أيضاً، أي الدول المستعمرة ـ بالفتح ـ مسلوبة الحرية ولا تتمتع بأي استقلال ذاتي، حتى ولو نادت بالحرية، أو رفعت شعارات مشابهة.. فكلنا عاش في إيران ورأى وسمع ولاحظ أن النفط والاقتصاد والموارد الزراعية الإيرانية كلها كانت تحت سيطرة أمريكا.. فهذه العبودية أشد وطأة من تلك التي كانت في العصور الغابرة.. فحياة الشعب الإيراني مرهونة بأيدي الأجانب ومفتاح مستقبل البلاد كان في جيبهم، يتصرفون بنا كما يريدون، ويستغلوننا أشد استغلال.. حتى ثقافتنا الإسلامية الأصل حاول الاستعمار تشويهها لاستبدالها بثقافة غربية لتمرير خطتهم الجهنمية ضد شعوب العالم ليتمكنوا أكثر في استبدادهم وظلمهم..

فالاستقلال إذن هو جوهر الحياة ويدخل في كل المجالات الثقافية والاقتصادية والعقائدية والسياسية، فأهم العناصر لبناء أمة جديدة هو الاستقلال التام..

يروى أن سيناتور في مجلس الشيوخ زار جامعة طهران وألقى كلمة قال فيها: أن هذا التمدن والحضارة التي نعيشها نحن مدينون فيها إلى الغرب، لأننا أخذناها عنهم، كذلك أن العلم الذي تدرسونه، من طب وأدب وغيرهما منبعه الغرب.. وهل تعرفون على ماذا كانت تعتمد ثقافتنا بالسابق؟ إنها كانت تعتمد على الخزعبلات، والكتب مليئة بتعاليم اللعب مع الثعابين.. ثُمّ طرح موضوعاً حتى يكتب فيه الطلاب وتجري فيه مباريات، وفي ظنه هذا تشجيع للطلاب.. ففاز أحدهم بالمباراة وكتب أحسن موضوع، فلما دعاه السيناتور فوجئ بأنه طالب علم ديني وقال له: كنت أظن أن الفائز سيكون من الذين درسوا في أوروبا ولم أحسب حساباً أنه سيكون ممن درسوا العلوم القديمة! فأجاب الشيخ بعصبية: أتعلم إنني اعتمدت في كتابة البحث على حديث نبوي.. ثُمّ ما تلك الخزعبلات التي تفوهت بها عندما زرتنا، ألا تعلم أن كتب ابن سينا وأسفار الملا صدرا ومنظومة السبزواري في المواد الأساسية لهذه العلوم التي نتلقاها في الكليات فهي عماد دراسة الأدب والفلسفة، ولكنك تناسيت كل هذه القيم وتعلقت بعلم الثعابين لتثبت أننا لا شيء ويجب علينا أن نبقى تحت سلطان الغرب أذلاء، انتهى.

في عصرنا الحالي لا يستطيع أي شعب بأن يدعي أنه وضع علم من العلوم، وهذا لاشتراكها وتداخلها، ولكن التمييز يحصل في العقائد وطرق التفكير ومناهج الحياة المتبعة.. وهنا تبرز مسؤولية الشعب لحفظ هويته الخاصة والتمسك بوطنيته وعدم الرضوخ للاتجاهات الغربية.

في السنوات الأخيرة ظهرت فئة تؤمن بالتقاط العقائد التقاطاً من الشيوعية تارة، ومن الوجودية أخرى، ومن المذهب الإسلامي ومع ذلك يعتقدون بأن هذه هي العقيدة الأصيلة..

إني أحذر من التعامل مع تلك المكاتب الأجنبية مهما كانت الهوية.. إذ أن فنائنا كامن في ابتعادنا عن الخط الأصيل، ألا وهو المذهب الإسلامي..

هناك موضة فكرية شائعة، وللأسف بين أبنائنا، وهي المقولة أن الاقتصاد وهو العامل الأساسي للتاريخ والديالكتيك هو منطقه. ولذا يفسرون الإسلام ديالكتيكياً.. فهؤلاء حتى ولو أن نواياهم غير سيئة ولكنهم يساعدون على بث النفاق، وفكرهم يؤدي إلى تشويه الحقائق الإسلامية.. يجب علينا إظهار الإسلام كما هو في أجلى صوره وأصدقها ونثبت أنه يختلف عن الشيوعية وعن الرأسمالية وأفكار الغرب.. فالتفسير الغربي لبعض الآيات القرآنية مرفوض إسلامياً، إذ أنهم يلجئون إلى النظريات العلمية لينكروا وجود المعجزات، كأن يقولوا أن فرعون وجنوده لما اتبعوا موسى وبني إسرائيل وانشق البحر لموسى وغرق فرعون هذا ليس فيه شيء غريب لأن موسى عبر البحر حين كان الجزر ووصل إليه فرعون فأغرقه المد..

أما انقلاب العصا حية تسعى يفسرونها بالمنطق القوى عند موسى الذي استطاع التغلب على حجج فرعون وحاشيته، فكأنه بمنطقه ابتلعهم كما تبتلع الحية ضحيتها.. إن عدم إذعان هؤلاء للمعجزات السماوية التي استدل عليها بالعقل والنقل هو دليل انفصالهم عن دائرة الإسلام وتبعيتهم للغرب وإنهم يخدمونه لاستعمارنا واستعمار كل دول العالم الثالث.. وخيانة هؤلاء لشعبهم وأرضهم واضحة كل الوضوح بل هي أشد ممن تعلق بالمكاسب المادية...

المحاضرة الخامسة

الاتجاهات المعنوية

في الثورة الإسلامية

ألقيت في مسجد فرشته

في شهر نيسان 1979

ومن الأركان المهمة والتي كان لها تأثير بعيد المدى في الثورة الإسلامية هو المعنوية.. ويتفق الجميع بأن لا استمرار لأي مجتمع بدون معنوية.. فما هي المعنوية؟ فحدها المتعارف عليه هو: عدم وجود سلسلة من الممارسات والتصرفات.. فالمجتمع عندما لا يكون أنانياً ولا انتفاعيا وغير متعصب دينياً ولا عنصريا عندئذ يتمتع بصفة معنوية مرتفعة، ويكون أفراد المجتمع متحابين فيما بينهم كالأخوة، فلا وجود للأنانية، وتعم المحبة الجماعية والتفكير في المجتمع ككل وهذا من شأنه أن يذيب «الأنا»..

وهنا سؤال ملح هو: هل نستطيع أن نكوّن هكذا مجتمع؟ وهل هذه الصفات السلبية هي المعنوية؟ يقول من يؤمن بذلك التعريف: أن الإنسان بطبعه اجتماعي وعندما نبحث عن سبب الأنانية والانتفاعية الشخصية عند الإنسان نجدها كامنة في حبه للملكية الخاصة.. ولكن البشر كانوا قديماً يعيشون جماعات جماعات وكل جماعة تفكر تفكيراً جماعياً ولا وجود للأنانية بينها.. ولكن عندما تطور المجتمع وظهرت الملكية الخاصة من الدولة نقضي على تلك الصفات ونحقق صفات سلبية هي المعنوية..

والملكية تعني: استلام وسائل التوليد، وبالتالي ظهور الأشياء التي تميز الأفراد عن بعضهم.. فمن يقول هذه سيارتي أو هذا بيتي أو هذا متجري يكون قد ميز نفسه وفضل ذاته على الآخرين..

وبهذا الشكل فإن الإيمان بالله والإيمان بالغيب وما وراء الطبيعة والأنبياء والاعتقاد الديني، وكل هذا لا يعني شيئاً أبداً وأن المعنوية الأخلاقية تعني اتحاد النفوس للعمل..

وهناك من يقول أنه مع فرض اعتبار مصدر الأنانية هو تعلق النفس البشرية بأشياء يمتلكها الإنسان لنفسه، فسوف لا تزول الأنانية بنفي الملكية الخاصة وذلك لوجود عوامل أخرى اجتماعية تحدد الفرق بين الأفراد، فهناك تتدرج وتتسلسل في سلك الوظيفة ـ مثلاً ـ إذ لابد من وجود مدير عام ورئيس المصلحة وموظف بسيط وعامل عادي، فهذه مراتب في الوظيفة مفروغ منها ولا تستقيم أعمال الدولة بدون هذا التفاوت، أي وجود رئيس ومرؤوس.. حتى في الحزب الشيوعي نفسه فهناك رئيس للحزب ثُمَ اللجنة المركزية العليا ثُمّ بقية المنتسبين على تفاوت أيضاً في المهمات والمراكز، فطبعاً الرئيس وأعضاء اللجنة لهم مميزات وخصوصيات معينة غير معطاة لبقية منتسبي الحزب ثُمّ نقول للذين لا يؤمنون بالملكية الخاصة، أي أن يسود المجتمع الفكر الاشتراكي، فنسألهم هل الاشتراكية في المال وحده أم أنها اعم حتى تشمل الاشتراكية في النساء أيضاً، فهل يقدر الإنسان حينئذ أن يتخذ زوجة؟ أم أن زوجته مشتركة بينه وبين آخرين؟

أقول: إن الأشياء لا تتعلق بالإنسان بل إن الإنسان نفسه هو الذي يتعلق بالأشياء، أو بعبارة أخرى أن الحالة التي نسميها بحب الحياة موجودة في الإنسان.. فعوضا عن أن نجرده من الملكية نحاول تجريده من حبه للملكية، فيكون الإصلاح من

داخل الإنسان.. أما من حيث الوسيلة المتبعة فإنني أعتقد أن أفضل الوسائل لذاك هو التمشي مع فطرته التي فطر عليها، وهي الفطرة الحقيقية الكامنة في ذاته والتي تشكل حقيقة وجوده وهي: الإيمان بالله الواحد الأحد وعبادته على غير وجه كما أراد الله سبحانه وتعالى.. وهذه العبودية لله وحده لا تعني التعلق، إذ أن التعلق بشيء سيحدد قيمة الإنسان.. فبالإيمان لله وبعبادته يرجع الإنسان إلى حقيقته ويكتسب المقدرة على التكامل الإنساني نحو اللانهاية.. وهنا تتعدد رغبات الإنسان وتتحدد شهواته نحو الأشياء فتنظم الحاجة التي تملي على الإنسان امتلاك شيء بصورة عادلة حسب نظرة الإسلام إلى التملك.. إذ أن الروابط إذا كانت ظالمة أو من غير شعور بالمجتمع الذي هو فيه بل تحكمه الأنانية العمياء تؤثر على فطرته الحقيقية وبالتالي يجعل الإنسان هوة كبيرة بينه وبين خالقه.. وهذا مرفوض.. فبملاحظة الفطرة والإيمان بالله والسير على المنهج الإسلامي الصحيح تنتظم الروابط الاجتماعية وتصبح الملكية ظاهرة جيدة.. قال الله تعالى في كتابه الكريم: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ).. (آل عمران: 64).

فالقرآن يؤكد على أن الإيمان بالله شرط أساسي لتعايش الشعوب بسلام وأمان، أما بالنسبة لقانون الملكية والروابط الاجتماعية للإنسان فيقول القرآن: (إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) (العلق: 6- 7).. فالسعادة لا تتم بالغنى بل بالقناعة..

لنعود إلى حديثنا فنقول: هل بإمكان المعنوية ـ وتعبر عنها بعض الاتجاهات الفكرية بالإنسانية ـ أن توجد ذلك العمق الذي تقترحه الأديان؟ وهل من الممكن أن يصبح الإنسان معنويا بدون تفسير وجوده ووجود العالم الخارجي على أساس معنوي؟ وهل المعنوية ممكنة الوجود بدون الإيمان بالله وباليوم الآخر والإيمان بأن هناك عوامل غير مادية في وجود الإنسان نفسه؟ فالجواب في رأيي: بـ كلا..

من خصائص ثورتنا الإسلامية أنها كانت متكئة على المعنوية الواقعية.. وهذه المعنوية تختلف عن تلك التي يقولون بها المؤمنون بالإنسانية، إذ أننا نرى بطلان نظرياتهم في نفس الدول التي لا توجد فيها الملكية الخاصة.. إذ عدم وجود المعنوية لم يقض على عدم تفشي الأنانية بل إنها منتشرة بنفس المقدار التي هي موجودة فيه في الدول الرأسمالية.

وأوضح مثال على البطلان إدعاء أن الملكية الخاصة هي مصدر الأنانية، هو ستالين الذي عرف بأنه أكبر ديكتاتور عرفه التاريخ، فهل كان عنده ملكية خاصة تدفعه نحو عبادة ذاته وحبه الكبير لنفسه واعتداده برأيه فقط دون اعتبار الآخرين؟ فهذا دليل على أن سلب الملكية الخاصة لا تحل مشكلة المعنوية بل حلها محصور بالعدالة الاجتماعية التي سببها الإيمان بالله.

وللأسف إننا نرى في المجتمعات المتحضرة اهتزاز في الروابط الاجتماعية، بمعنى أن هناك إفراط في اليمين وإفراط في اليسار وهذا الأسلوب الخاطئ هو المتبع في حل المشاكل الحياتية، ونادراً ما نلاحظ أن العدل هو الحاكم وهو السائد ـ مثلاً ـ كثر الحديث في مجتمعنا قبل خمسين عاماً حول المعنوية ونسي الناس التحدث في العدالة الاجتماعية.. والآن نراهم يكثرون في النقاش حول العدالة الاجتماعية وإهمال المعنوية..

أما الجرائد التي من واجبها أن تكون لسان الشعب، كل الشعب نراهم اليوم تحلل الأمور تحليلاً مادياً، ولا يعطون أهمية للمعنوية، وذلك واضح في تفسيرهم لمعنى يوم الآخرة إذ يعتبرونه نهاية الأشياء، وبذلك يخالفون القرآن والسنة اللذان يؤكدان وجود عالم آخر..

فإن هؤلاء بتجريد العدالة عن المعنوية ينحرفون عن الصراط المستقيم.. ويجب أن يدرك الناس أجمعين بأن لا عدالة بدون معنوية.. والمعنوية بنظر القرآن هي أساس التكامل.. أنظروا إلى حياة الرسول تجدونه مع كل مشاكله والمسؤولية التي حملها يقول عنه القرآن: (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ) (المزمل: 20).

وتكرر نفس الوضع مع الإمام علي (ع) فإنه كان (ع) يشتغل في النهار فيتعب ولكن تعبه لا ينسيه ربه فيقوم في الليل خاشعاً متوسلاً العلي العظيم فيجيء ليله بالصلاة والدعاء والبكاء..

هذا هو واقع التاريخ الإسلامي وتلك هي صراحة الآيات القرآنية.. ولا نستطيع تأويل وتفسير تلك المسائل.. وأي تفسير مادي لهذه المسائل هو خيانة للقرآن.. إن ثورتنا ستهتم في النهاية إلى جانب العدالة الاجتماعية بالحاجة إلى المعنوية بمفهومها الشمولي والشائع.. تلك المعنوية التي رأينا نماذج منها في الأنبياء والأئمة الأطهار (ع).

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الروحانيون والثورة

سيكون كلامي حول موضوع مهم وهو دور علماء الدين قبل الثورة وبعدها.. ومع أن عملهم واضح بيِّن لا يخفى على أحد من أنهم يسيرون على الخط الإسلامي لتحقيق الأهداف السامية كالقضاء على الظلم وإقرار العدالة والإصلاح في المجتمع.. مع ذلك نجد أن اليسار دائماً يتساءل كيف أصبح علماء الدين ثواراً؟ إذ باعتقاد الفئات اليسارية أن الطبقة المحرومة هي أساس الثورة الشعبية، ولذا لا يتسنى لرجال الدين قيادتها لأنهم على علاقة وثيقة بالحكم الشاهنشاهي، أما مسيرهم مع الثوار فعلى أساس خطة مدبرة من الطبقة الحاكمة لإنقاذ عرشها، بعد ما وجدت نفسها على شفير الهاوية لجأت إلى الروحانيين لاحتواء الثورة حتى يعيدوا للطبقة الحاكمة طريق العودة.. وأصدرت منظمة «طوفان» السرية نشرة في شباط سنة 1979 في جريدتها «حزب العمال والفلاحين الشيوعيين الإيرانيين» وقالت فيها: لا تنخدعوا بهؤلاء الرجال الذين يُدعون رجال الدين، لأنهم من صنع نظام الشاه ويريدون حفظ هذا النظام..

كذلك نجد عند بعض المثقفين العجب والغرابة في أن قيادة الثورة الإيرانية بأيدي علماء الدين فيحاولون بأية وسيلة إلصاق التهم بأنهم عملاء للانگليز والروس.. وهذا الاتهام للعلماء الروحانيين نتج عنه فصل بينهم وبين بعض المدنيين، يقول أحد الكتاب، وهو ابتدأ حياته الفكرية مع حزب تودة (الحزب الشيوعي الإيراني) ثُمَ أصبح متدينا مع مرور الأيام في مقال له سنة 1979: بأن السبب الرئيسي في هزيمة ثورتي المشروطية والوطنية بقيادة «مصدق» هو الانفصال الذي حصل من قبل العلمانيين مع المؤمنين ورجال الدين، ومحاولة استثمار جماعة مصدق وحدهم بالسلطة بعد نجاح النهضة..

وفي هذه الثورة كان يظن المثقفين بأن العاملين الأساسيين في المجتمع والثورة هما العامل الاقتصادي والعامل السياسي.. ولم يستطيعوا التوصل إلى وجود عامل آخر هو أمتن وأعمق جذوراً في المجتمع وأسبق وجوداً في الثورة من العاملين ألا وهو العامل الديني..

ولوجود تلك الأفكار المسمومة في المجتمع وطرحه على سبيل مسلمات أردت أن أركز على دور علماء الدين في إيران وضرورة بقائهم ونشاطهم لاستمرار وبقاء الثورة.. وقبل الخوض في ذلك أريد أن أجيب على استفسار أكثر الناس عن سبب نفوذ رجال الدين القوي؟

منذ فترة وجيزة أجريت موازنة بين علماء الدين الشيعة وبين علماء السنة وقلت أن النظريات والآراء الإصلاحية المطروحة من قبل علماء السنة أكثر مما هو المطروح من قبل علماء الشيعة ومع ذلك لم يستطيعوا إيجاد حركات إصلاحية عميقة في المجتمع على عكس علماء الشيعة الذين تميزوا بإيجاد حركات إصلاحية كثيرة في المئة سنة الأخيرة..

إن أحد الأمريكيين الذين آمنوا بالإسلام ظاهراً كتب كتاباً عن تاريخ إيران الحديث جاء فيه: إن لعلماء الدين في إيران الدور الأساسي في نهضة المشروطية، وإن رجال الدين الشيعة كانوا دائما معارضون لسلاطين عائلة قاجار، وكانوا في طليعة الذين تصدوا لنفوذ الطبقة الحاكمة وللاستعمار البريطاني في إيران.. وفي النهضة التي حدثت لأجل تأميم شركة البترول الإيرانية وانتزاعها من أيدي الانگليز، لم تكن لتنجح لولا ترأس آية الله خوانساري والكاشاني ومنظمة فدائيان إسلام لهذه الحركة بجانب مصدق رئيس الحكومة آنذاك.. ومنذ سنة 1963 إلى يومنا الحاضر كان ولا يزال علماء الدين هم الطليعة في قيادة الثورة الجماهيرية لأجل الإطاحة بالطاغوت، وإقامة الحكومة الإسلامية.. ولكن الكلام عن الماضي ما هو إلاّ للعبرة فغير مجد، وعلينا أن نخطط للمستقبل، ولأجل ضمان مستقبل زاهر وحياة إسلامية نحن بحاجة ماسة إلى علماء الدين بشرط أن يدركوا أو يعرفوا وظائفهم بشكل جيد، ويعوا المسؤولية وعياً رفيعاً، ويكثفوا الجهود أضعافاً مضاعفة معتبرين هذه الفترة فترة جهاد ونضال، لا فترة قطف الثمار..

في صدر الإسلام كان الجهاد وجهاً لوجه مع الكفار حتى موقعة كربلاء واستشهاد الحسين (ع).. أما في أواخر القرن الهجري الأوّل وما بعده فقد انقلبت الأوضاع وتبدلت الأساليب وامتزجت الشعوب بعضها ببعض تحت راية الإسلام، وامتدت الدولة الإسلامية لتشمل أراضٍ شاسعة.. فاتجه المسلمون نحو العلم وتركوا السلاح جانباً.. وانعكفوا على القرآن لفهمه فهماً صحيحاً، وابتدأوا بدراسة الأحاديث النبوية والتفاسير القرآنية فهماً وتمحيصاً وتدقيقاً.. وبينوا والأحاديث الكاذبة والأباطيل المزعومة من قبل المنافقين، وأظهروا أقوال الرسول (ص) الصحيحة، وكان يوجد أيضاً أصحاب الأديان الأخرى الذين كانوا يدافعون عن معتقداتهم وآرائهم في جو تسوده الحرية.. وسنأخذ أسلوب الإمام الصدق (ع) في الجهاد العملي والفكري في ذلك الزمان مع الطاغوت ومع أصحاب الأفكار المنحرفة، إذ كان عليه (ع) أن يواجه أفكار ذات اتجاهات مختلفة وكثيرة، وهي الفرق الكلامية والفلسفية والفقهية، ووجود اليهود والمجوس والجاثليق (الكاتوليك) والمكاتب الدهرية والمادية..

وهذا الوضع نفسه عاشه إمامنا الرضا (ع) في عهد الخليفة المأمون الذي كان محباً للعلم ومجلسه كان حافلاً بالعلماء والمناقشات الفكرية كلها تجري في حضوره وإشرافه، وكان الإمام الرضا (ع) يتصدر هذه المناظرات مبطلاً ادعاء الاتجاهات الغير إسلامية مثبتاً عقيدة الإسلام..

مما ذكرنا يتبين أن وظيفة القائد الديني هي بيان الصراط المستقيم وإدحاض الأفكار المنحرفة وإبطال الإدعاءات الباطلة.

فعلمائنا لهم هذا الدور في هذه الأيام.. وعليهم التنظيم والاتحاد في النشاطات وتكثيفها لمقابلة الأفكار المعادية.. وعليهم إرشاد الناس وإصلاحهم من خلال المساجد التي تعتبر أكبر قواعد للروحانيين، أو من خلال الإذاعات المرئية والمسموعة التي يجب أن تحتوي على برامج تثقيفية دينية..

وأشد القول بأن ضمان دوام ثورتنا في خطها الإسلامي المستقيم ومضيها في طريق النصر مترابط مع بقاء رجال الدين على رأس القيادة العليا في البلاد.. أما إذا نزعت هذه السلطة من أيديهم فإني أرى أن الدين سيمسخ ويمحق بعد قرن من الزمان أو بعد جيل من الآن.. من هنا نلاحظ أهميّة الحفاظ على هذه المؤسسة الدينية، وهذا لا يمنع من إصلاح ما فيها من خراب وآفات لتدب روح النشاط فيها مجدداً..

أما سبب ترأس علماء الدين الشيعة للحركات التحررية على مدى التاريخ فهو يرجع إلى الثقافة الدينية الواسعة التي يتمتعون بها، هذه الثقافة المولدة دائماً للحركة وللثورات، إذ أن النبع الذي تغترف منه هو علم الإمام علي (ع) وتتغذى من أفكاره، وتقتدي بأفعاله.. وهذه العناصر المولدة للحركة الدائمة لا توجد عند غيرنا.. والسبب الثاني أن علماء الشيعة، بل الطائفة الشيعية بشكل عام، كانت ولا زالت منذ فجر التاريخ معارضة للسلاطين والملوك، فينكرون أحقيتهم في الحكم ويسلبون الشريعة في تسلطهم على رقاب الناس.. كذلك إن علماءنا تميزوا بمعنويات رفيعة مستندة على الإيمان بالله وبالإسلام قولاً وفعلاً والذي يصر على إحقاق الحق والعدالة للناس أجمعين والمساواة بين أفراد المجتمع، فلذلك استند علماءنا على الناس لأنهم طالبوا أن يعيش الناس حياة سعيدة في حرية وعدل ومساواة وأنهم لم يساعدوا الحكام على ظلمهم وعلى جورهم لأنهم لم يكونوا جزءاً من الدولة.. لذلك لاحظنا أن أبا يوسف القاضي في عهد هارون الرشيد لم يكن يتمتع بشعبية لأنه مشى مع السلطة، بينما نرى شعبية الإمام محمد عبده كثيراً جداً، وكذلك المصلح الكبير الشيخ محمد شلتوت المصري فإنهم عارضوا السلطة لأنها جائرة ورفضوا السير إلاّ تحت راية الإسلام كانت لهم الشعبية الواسعة والتأثير على الناس..

فالروحانية الشيعية قامت منذ البدء على استقلال عن القدرات الحاكمة، وهذه الاستقلالية عند أولئك العلماء جعلتهم رأس الحركات الثورية التحررية.. ويجب على علمائنا حفظ هذا الأسلوب في المستقبل أيضاً.. وكما قال المرشد الأعلى للثورة وقائدها: يجب على علماء الدين أن لا يتقبلوا المناصب الحكومية في الجمهورية الإسلامية، وعليهم الوقوف بجانب الدولة لإرشادها، مع العلم أن هناك مناصب خاصة لعلماء الدين كالتعليم والقضاء فيجب التمركز فيها.. وإنهم لو أسسوا مؤسسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل مستقل عن الدولة لقادرون على القيام بالإرشاد والإصلاح إذا وجد خلل ومراقبة الدولة بشكل أفضل..

وإلى جانب ذلك يجب أن يسعى العلماء دائماً إلى إحياء المساجد وإحياء صلاة الجماعة مع إلقاء محاضرات إسلامية في الوعظ والإرشاد.. ويجب حذف الانحرافات والخرافات والأكاذيب الواردة في بعض الخطب..

وأنهي حديثي بالقول أن لعلماء الدين الوظيفة الأساسية في حفظ الثورة وضمان استمرارها نحو الأفضل.. ويجب عليهم تكثيف الجهود ليكون باستطاعتهم احتلال المكان المناسب في المجتمع والبقاء دائماً في الصدارة وفي موقع القيادة لهداية المجتمع نحو الإيمان بالله والسير على التكامل الأمثل على خطى الرسول الأعظم وعترته الأئمة الأطهار (ع)..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته